الى القارئ

كانت الصائفة الفارطة زاخرة بالنشاط الثقافي بمختلف فروعه وشتى فنونه ، وتوالت المهرجانات الفنية والملتقيات الادبية والايام الدراسية فكأن الحر أصبح يوقظ الهمم ويلهم القرائح ويدفع الى العمل الصالح بعد أن كان فيما مضى باعثا على الفتور ومرغبا فى الراحة والاستجمام ٠

وهذا مظهر جديد لعزيمة تونس المستقلة على طى المراحل وسباق الزمان فى سبيل تدارك ما فات والتهيؤ لما هو آت ، واللحاق بركب الحضارة والخروج من طور الاستهلاك والتفرج الى طور الانتاج والفعل ٠

وإنما بوحى من روح الأمة الحية المتجددة وبالاخلاص الى أخص خصائصها تبعث الثقافة الأصيلة ويشع الفكر الحق ويكون للقوم منزلة مرموقة بين الأقوام ٠

لذلك امتازت هذه الفترة التى نعيشها بالحرص على إحياء التاريخ وتعريف شبابنا بأسراره واستخلاص العبر منه ٠

والى جانب مهرجان « يوغرطة » الذى جلى جوانب هامة من حياة بلادنا فى القرنين الثانى والاول قبل المسيح وأفسح المجال مرة أخرى لأساتذتنا وذوى الاختصاص من أبنائنا كى يسدوا الثغرات العميقة التى تركها المؤرخون الأجانب عند دراستهم تاريخنا أو ينصفوا هذا التاريخ ويخلصوه مما أحاطه به بعض هؤلاء المؤرخين من تشويه ومسخ ، يحق لنا ـ الى جانب ذلك ـ أن نعتز ونبتهج ببعث مدينة رقادة بعد أن رقدت وطواها النسيان منذ أكثر من ألف سنة ، وذلك بفضل عناية السيد رئيس الجمهورية الشخصية التى تمثلت بالخصوص فى الاذن باجراء التنقيبات الضرورية والحفريات اللازمة لاحياء عاصمة « بيت الحكمة » ومهد أحمد بن الجزار واسحاق بن عمران واسماعيل الطلاء ٠٠٠ وغيرهم من أهل العلوم الرياضية والطبية ٠٠٠ وعبد الملك بن قطن الفهرى وابن الوزان والداروني من ذوى الاختصاص فى علوم اللغة والرواية والشعر ٠٠٠ والاذن ـ كذلك ـ ، بعد احياء ما اندثر من معالمها ، بتشييد قصر جمهورى ودعوة رجال الثقافة والشعراء الى التبارى بين أروقته والبحث والدرس بحضور رجال الدولة وأهل الفكر ٠

بذلك نحيي تاريخنا ونبعث أمجادنا ونغذى روح الاعتزاز بالانتساب الى هذا الوطن فى نفوس شبابنا ٠

وبذلك ـ كذلك ـ لا نكتفي بأن نردد :

تلك آثارنا تدل علينا   فانظروا بعدنا الى الآثار

بل نهب هذه الآثار الحياة وننطلق منها الى تكييف حاضرنا وتخطيط مستقبلنا ، ونقتبس من روعتها وجلالها لنفعل كما فعل أجدادنا وأكثر ! ونجتهد كما اجتهدوا وأبعد !

لأن الشجرة المباركة لا تنتشر أغصانها فى الفضاء ولا تورق وتثمر إلا إذا امتدت جذورها فى الأرض وارتوت من الماء الزلال الذى تزخر به الأعماق ٠

الفكر

الإنسان الرائد

شعر : أحمد المختار الوزير

هناكَ ، في سَكينة خرساً ، وفَجّ من غَدَرْ
وفي ضباب أغْبر الآفاق ، جَهْم ، مُكْفَهَرْ
في وَحْشَة كَوَحْشَة الخَريف ، من يَوْم خَدِرْ
لا صَحوهُ مُؤتَلق ، ولا السَّحابُ مُنْهَمَرْ
جَوّ كَئيب غَبِش ، وَمَوْطِيء وَعْر ، حَجَرْ
مَحْصَبَة مَفْرَشُهَا الحَصْبَاءُ . من زُرْق الابَرْ

هناك ، لا ظلّ ، ولاَ مَعَاذَة ، ولاَ مَقَرْ
وَلا طيوف تُجتَلَى ، ولاَ شُخُوص لأثَرْ
لاَ سِرْبُ طَيْنر حَائِم ، وَلاَ قَضِيفَات لِذرْ
لاَ نَأْمَة ، لا نَبْرَة ، لا مُخْبَر . ولا خَبَرْ

هناك . حَطّ الرائدُ الإنسانُ يستجلي القَمَرْ
من بعد ما طَوَى الفَضَا ، مُقْتحما هَوْلَ الخَطَرْ
وجازَ دُنياه ، على مَتْن جَنَاح . كَالسُّبَرْ
جَازَ السَّمَا ، مُصَعدا ، إلى سَمَاوات أُخَرْ
يَحدُوه ، من ايمانه ، عَزْمٌ نَبيغ مُقْتَدرْ
وهَمَّة يَشُوقُهَا مَا حَجَّبَتْ أغْلاقُ سِرْ

هناكَ ، في وَقْفَته الاولى على حَرْف سَدِرْ
أغْضَى الجُفُونَ ، ساعة ، على كثير من حَذَرْ

ورَاحَ في اغضائه ، يَجلُو الحياةَ وَالفِكَــرْ
كشَاعر لاَذَتْ . به . سَوَافر من العِبَــرْ
أوْ عَــابِدٍ أُلْهم . من آياتِ رَبِّه . الكُبَــرْ
ظَـلَّ يناجي نَفْسَه . يُؤلِمُـه مَا يَذْكـرْ

أنا الإنسَانُ ههنا ، أنا القَريبُ المُنْتَصرْ
وهذه رجْلي ، بها ، أمْشي عَلَى مَهْد القَمَرْ
وبيدي قد رُفعَتْ ، إلى السَّما ، رَايةُ حُـرْ
لكنَّني – وَاحزَني – أطوي الضّلوعَ عَنْ كَدَرْ
ففي فجاج الارْض . من دُوني ، جَحيم يَسْتَعرْ
وَمَـاردُ الطاغُوت نَفَّاث بنَـار وشَـرَرْ
أضْرَته أثْآر ، وأحْقَــاد ، وغُلْواءُ البَطَـرْ
فلَـجَّ ، في هيَّاجه ، أعْشَى البَلاَء وَالبَصَرْ
يُبيدُ ، من أجيَالنَا ، فَلَيْس يُبْقِي أوْ يَذرْ
يَا رَايتِي . لَنْ تَشْهَدي ظِلِّي ، وَللشّقَا أثَـرْ
لَنْ تَشْهدي ظِلِّي عَلَى غَيْرِ السَّلامِ للبَشَرْ

أ٠ م٠ و٠
69 – 7 – 27

رقادة الخلود

بقلم : محمد الشابي

تقع مدينة رقادة في الجنوب الغربي للقيروان ، في سهل فسيح ممتد كثير البساتين والمزارع ، يصفه المؤرخون بانه كان ضيعات قبل احداث البناء به ، وهو اخصب الاراضي المحيطة بالقيروان ، حتى ان الحبة تعطي مائة حبة في سنوات الخصب ، وكان الطبيب ابن اسحاق طبيب ابراهيم الثاني الاغلبي يعرى راسه حينما يخرج من القيروان متوجها الى رقادة ، لطيب الهواء واعتداله ورقته ، بالاضافة الى ان هذا الاتجاه هو المجال الوحيد لتوسع مدينة القيروان لانها مهددة من الجهات الاخرى بالسيول والسباخ .

يتفق جميع المؤرخين على ان اسم رقادة مشتق من الرقاد ويذكرون ان ابراهيم الثاني الاغلبي مرض بالارق ، فنصحه طبيبه ان يرتاد المواضع عله ينام ، فنام في موضعها فسميت رقادة . بينما يذكر آخرون انه مشتق من رقاد الجثث بعضها فوق بعض في مقتلة وقعت في المنطقة بين الورفجوميين والاباضيين سنة 140 هـ . والحقيقة اني اشك في صحة الروايتين ولكنني لا املك حججا ادعم بها شكي سوى انهما لاتخلو كل منهما من جانب اسطوري ، ولعل اسمها مشتق من كلمة لاتينية لم نطلع عليها بعد ، خاصة وان موقع رقادة لم يكن اكتشافا اسلاميا محضا بل اننا نملك ادلة اثرية تثبت انه سكن قبل الاسلام ، فوجود المقبرة ربها ، وما تحتوى عليه من فخار يعود الى القرون الثلاثة الاولى للميلاد يدل على ذلك ، بالاضافة الى ان كثافة المقابر تدل على وجود تجمعات سكنية ، وان المستوى المادي لهذه التجمعات كان مرتفعا نسبيا نتيجة لرقة الفخار ، وجودته .

ثم ان هناك نصا تاريخيا يفيد ان الاغالبة كانوا يترددون ويتنزهون في هذا المكان ، ونتيجة لكل هذه المعطيات اعتقد ان ابراهيم الثاني لم يختر موقع رقادة صدفة ، بل انه كان يعرفه ، ولهذا تنتفي حكاية النوم والارق .

وان الاسباب التي دعته لبنائها لم تكن النوم او الرغبة في اللهو كما ينسب اليه ذلك المؤرخون، خاصة وان له في ملاهي العباسية وقصورها ما يغنيه عن رقادة . ولكن المعتقد انه عمرها نتيجة لاسباب سياسية عسكرية فالذي يتطلع الى دراسة عصر ابراهيم يجد ان الاضطرابات والخصومات على جميع المستويات السياسية والعقائدية الفكرية او الدينية ، بلغت اشدها ، فالاضطرابات التي قام بها الموالي في العباسية ، والجند المقربون في تونس ، كذلك لاننسى الخصومات الدينية مع الاباضيين في الجنوب ومع فقهاء القيروان انفسهم . لكل هذه الاسباب ولغيرها اراد ان يبني لنفسه مدينة محصنة يستوطنها ، فكانت رقادة ، وقد ايدت الاثار ذلك فإن القصر الذي كشفت عنه الحفريات بابراجه واسواره ومدخله المنحني يدل على انه عمل اولا وبالذات ليكون قلعة دفاعية ، ومقرا للسكنى بعد ذلك ، كذلك يذكر الرحالة الاصطخري انه توجد خارج القيروان ابنية كانت معسكر آل الاغلب وتسمى الرقادة ثم اننا نجد اشارات كثيرة في كتب التاريخ الى انها استعملت كمعسكر للجيوش الصنهاجية .

بالاضافة الى اننا اذا تتبعنا حركات انشاء المدن في تلك العصور نجد ان الاغراض العسكرية كانت على راس الاسباب التي تدعوهم لذلك . فإن المهدي الذي قال حينما بنى المهدية : الآن امنت على الفاطميات، يدل ، على انه كان ينشد الامن لا اللهو او النوم . كذلك قول عقبة حينما اسس القيروان : لئلا يطرقها صاحب البحر .

وفي التأكيد على هذا الجانب لايمكن اهمال الجانب الشخصي ، والرغبة في التعمير خاصة اذا كانت البلدان تتمتع بثروات هائلة ، كما كانت افريقية في القرن الثالث وما كان يدره عليها توسع الزراعة ونموها ، وتوسع الفتوحات من ثروات طائلة .

ومهما كانت الاسباب الداعية الى تأسيس رقادة ، فإن المؤرخين يذكرون ان ابراهيم بن احمد الاغلبي شرع في بناء مدينته رقادة في شهر صفر سنة 263 هـ . نوفمبر 876 م . واول ما بنى من قصورها قصر الفتح ، واستقر به قبل اتمامه سنة 264 هـ . 877 م .

ومنذ ذلك العهد اخذت في التوسع والنمو حتى قدرت مساحتها بـ 24 الف ذراع واتخذت دارا ومسكنا وموضع فرجة للملوك ، وبنيت بها القصور العجيبة ، وعمرت الحمامات والاسواق ، والفنادق ، وقد ارتفعت هذه القصور وسط البساتين اليانعة التي حفظت لنا كتب التاريخ اسماء بعضها : كقصر الصحن ، وقصر الفتح، وقصر البحر ، وقصر الرصافة ، وقصر بغداد ، وقصر المختار وغيرها ... وقد حمل هذا الاشعاع المطرد ابن الابار على ان يقول انها صارت اكبر من القيروان .

ولم تقتصر على سكنى الامير وحاشيته فقط بل سكنها ايضا بعض اهل الخدمة والمقربين من الامراء الاغالبة ، فقد بنى ابراهيم دارا كبيرة لضيافة البلزميين الذين استقدمهم من بلادهم الى رقادة سنة 280 هـ . يصفها المؤرخون بإنها تشتمل على دور عديدة ترجع الى باب واحد وامر كذلك ببناء فندق كبير لايواء بعثة من الزاب قدمت عليه فانزلهم به واجرى عليهم الخلع والارزاق ...

وتذكر النصوص التاريخية ان احد المهندسين بنى لزيادة الله الثالث قصر البحر وانه بناه على اربع طبقات ، الامر الذى ثار عجب المهدى الفاطمي الذى قال : « رايت شيئين بإفريقية لم ار مثلهما بالشرق هما قصر البحر برقادة ، وماجل باب تونس بالقيروان » فتعجب المهدي يدل على ان التطاول في البناء لم يبتدع بعد بالشرق ، وان المهندس الافريقي هو المبتكر لهذا النوع من العمارة وانه هو الذى حمله مع الفاطميين للشرق ، خاصة وان علو البناء يبدأ ذكره في القرن الرابع في القاهرة .

احيطت هذه القصور بالبساتين اليانعة التي اغترس فيها صنوف الثمار الطيبة وانواع الرياحين ، وقد جلب لها الماء من مسافات بعيدة على منشآت اعدت لذلك من حنايا مرتفعة او قنوات تحت الارض وبنيت الفساقي العظيمة بدقة وصلابة لتستطيع خزن وتصريف المياه الكثيرة ووزعت هذه المياه على القصور في قنوات تحت الارض وقسمت بمصارف وفتحات في غاية الدقة والنظام ، وان الذى يشاهد ما كشفته الحفريات من منشآت مائية للتوريد والتصريف ومجار واسعة عميقة يعترف بما لهؤلاء الامراء من عناية بالماء والزراعة .

يحيط بهذه القصور والفنادق والاسواق سور له سبعة ابواب نعرف منها باب سالم ، وباب القيروان ، وخارج السور كان الملعب الذي تقام فيه صلوات الاعياد ، والاحتفالات العامة ، وقد استقبل فيه زيادة الله الثالث سفراء الدولة البيزنطية .

وقد راعى ابراهيم في تخطيط مدينته ان تنفسح طرقاتها لتجول فيها العربات التي كثر استعمالها في العصر الاغلبي ، والتي من اجلها عبدوا الطرق ورمموا الجسور .

لم يدم حكم عبدالله الثاني بن ابراهيم طويلا ، اذ قتله ابنه زيادة الله الثالث وتولى مكانه ، وامر الدولة في تراجع ، فقد اسلم هذا الامير قياده الى اللهو ، وترك امور الدولة في ايدي الغلمان والجواري حتى وصلت ببعضهم الحظوة عنده ان ضرب اسمهم على الدراهم والدنانير وقد اغتنم ابو عبد الله الداعي هذه الفرصة فشدد الخناق على الدولة المحتضرة ، فأخذ يتقدم بجيوشه نحو العاصمة واصطدم بجيوش زيادة الله عند الاربس فكانت الهزيمة للاغالبة . ففر زيادة الله الثالث الى الشرق حاملا معه اغلى الكنوز واثمنها ، وبذلك ابتدات دولة الشيعة في افريقية سنة 296 (909) وبفرار زيادة الله فر سكان رقادة من الامراء والحاشية واهل الخدمة الى المدن الاخرى ، واصبح الناس الى المدينة فانتهبوها واخذوا من بقايا اموال بني الاغلب ومتاعهم وصنوف الآنية من الذهب والفضة ، وحفروا فيها الحفر بحثا عن الاموال ، واقتلعوا اقفال الابواب ولم تسلم من القلع حتى زخارف الدواوين وابيحت المدينة للنهب مدة خمسة ايام حتى ارسل ابو عبد الله من يضبط امورها فوجد الناس بين داخل وخارج ، فامر الخارج الا يعود والداخل بالخروج فارغا .

وفي يوم السبت مستهل رجب سنة 296 ه . دخل ابو عبد الله رقادة ووجوه القوم مشاة بين يديه مهنئين بالفتح والنصر وامن له زيادة الله ودولة الاغالبة فامنهم وردهم ردا لطيفا ، واجابهم في خصوص ذم زيادة الله ، بانه كان قويا وله دولة شامخة ولكن امر الله لا يدافع ... ونزل بقصر الصحن ووزع دورها على رجال كتابه .

و بعد مدة من استقراره بها جهز جيشا لفك اسر المهدى الذى كان مسجونا بسجلماسة ، ودخل به رقادة سنة 297 فتلقاه اهلها واهل القيروان ، فسلموا عليه فرد ردا جميلا وساله اهل القيروان تجديد الامان لهم فقال لهم انتم آمنون في انفسكم وذراريكم ولم يذكر الاموال فذكره بعضهم في الاموال فلم يجبهم .

بدخول المهدي رقادة ابتدات دولة جديدة في افريقية فقد امر بأن يذكر اسمه في الخطبة ، و على النقود ، والبنود ، وتلقب بامير المؤمنين ، ودون الدواوين وامر بأن يزاد في آذان الفجر « حي على خير العمل » وبذلك كانت رقادة اول مدينة بعد بغداد في تاريخ المدن الإسلامية ، ونافستها الخلافة بعد ان كانت تابعة لها ، ولم تصبح عاصمة لافريقية فقط بل عاصمة عموم المغرب من طرابلس الى المغرب الاقصى وكما نافست مكة دينيا فقد بلغ الحال ببعض متطرفي الشيعة ان اصبحوا يولون وجوههم في صلاتهم جهة رقادة ثم الى المهدية بعد ذلك ، حيث يسكن المهدي ومدحه احد شعرائهم :

حــل بــرقــادة المسيـــــــح
حــل بهــا آدم ونـــــــوح
حــل بهــا احمد المصفـــى
حـل بهـا الكبش والـذبيــــح
حـل بهــا اللــه ذو المعــالي
وكل شــيء ســواه ريــح

وبعد فترة وجيزة من جلوسه على عرش الخلافة في رقادة امر المهدي بقتل الداعي واخيه لما بلغ الى علمه عنهما انهما اشتركا في مؤامرة ضده . ولانعلم هل انه اراد التخلص منهما ، كما وقع لابي مسلم الخرساني وابي سلمة الخلال او انهما اشتركا فعلا في المؤامرة .

وهكذا عمرت رقادة للمرة الثانية ، بحاشية المهدي ، ومنهما كانت توجه السياسة الجديدة للدولة الجديدة ، وبدات ترسل الحملات العسكرية

للقضاء على الدويلات المتارجحة في الجزائر والمغرب الاقصى فقضى على دولة بني مدرار في سجلماسة ودولة بني رستم في تاهرت ودولة الادارسة وملك جميع ذلك .

ولم ينس المهدي العداء التقليدي بينه وبين اهل السنة في القيروان وراى ان مدينة رقادة لاتحميه منهم لقربها ولتحصيناتها الضعيفة ، فأخذ يرتاد الاماكن على الشاطيء حتى عثر على مكان المهدية وهو راس داخل في البحر صخري الشواطيء بحيث ان السفن لاتقترب منه الا بصعوبة بالاضافة الى انه يسهل تحصينه بسور متين على البر يصل بين البحرين ، وهكذا كان فاصبحت المهدية من امنع الامكنة واكثرها تحصينا وامنا .

ولما انتقل الى المهدية سنة 308 هـ . هجر رقادة ساكنوها فدخلها الوهن وبدات تخرب شيئا فشيئا ، وهو امر طبيعي لعدم العناية بها وصيانتها .

ودخلت رقادة طي النسيان مدة 24 سنة ثم طفح ذكرها من جديد ، ففي نص تاريخي ان القائم الخليفة الثاني الفاطمي ، فر من وجه صاحب الحمار من رقادة الى المهدية سنة 332 هـ . مما يبعث على الاعتقاد انها بقيت مستوطنا ولو لفترات قصيرة للخلفاء استنتج ذلك من هذا النص ، وهي نصوص تاريخية اخرى تفيد ان الامراء الصنهاجيين كانوا يسكنونها بين الحين والحين ولفترات طويلة نسبيا .

بهذه النصوص التاريخية ندحض قول البكري الذي يذكر ان المعز الفاطمي لما ولي امر بهدم منازل رقادة ولم يبق منها غير بساتينها وقد تواصل ذكرها وسكناها من طرف الصنهاجيين الى سنة 443 هـ . اى الى فترة الغزوة الهلالية ، فقد كان الصنهاجيون كل هذه السنين ينزلون بقصورها ويرسلون منها الهدايا الى الخلفاء الفاطميين بالقاهرة ويرسلون منها الحملات العسكرية ضد المارقين بالمغربين ، حتى جاءت افواج الهلاليين وانهزمت جيوش المعز بن باديس امامهم فامر باخراج عمته السيدة ام ملال وعياله وحرمه من رقادة واخذهم الى المهدية وبذلك ينقطع ذكر رقادة من الكتب التاريخية ، فاستنادا الى هذه النصوص ، اعزو هدم رقادة وخرابها الى خراب افريقية ابان الهجرة الهلالية التي محت نضارة افريقية وازدهارها والقتها في طيات الخراب والدمار وللتدليل على ذلك

اذ كر نصا يشهد بسلوك هذه الارجال البشرية ، يقول النص : « خرجت من القيروان وسرت ليلا ، فكنت اكمن بالنهار فلم امر بقرية الا وقد سحقت واكلت ، واهلها عراة امام حيطانها من رجل وامراة وطفل ، يبكي جميعهم جوعا ، وبردا ، وانقطع المير عن القيروان وتعطلت الاسواق ، وامسك العرب جميع من اسروه فلم يطلقوا احدا الا بالفداء مثل اسرى الروم ، اما الضعفاء والمساكين فقد امسكوهم لخدمتهم » .

وبعد حوالي الف عام من خراب رقادة كشفت الحفريات بقايا قصر من تلك القصور التي عددت بعضها وهو مبني بالطوب الني الذي يشتمل على حوالي 160 غرفة عدا الممرات والدهاليز مربع الشكل يحيط به سور خارجي تدعمه ابراج نصف دائرية وبداخله صحن يحيط به رواق من الجهات الاربع تفتح اليه الغرف وبه غرفتان رئيسيتان اكبر واوسع من الاخرى لكل منهما حنية يظهر انها كانت تحمل قبة اما سقفهما فقد كان محمولا على اعمدة مزدوجة .

ويشتمل قسم منه على مجموعة من الشقق لسكنى الحرم ، يفصلها عن المقر الرسمي للامير ممر اشبه بالدهليز .

كما خصصت به ثلاث مجموعات بنائية للاغتسال كحمامات تشتمل على الغرفة الباردة وغرفة المابيين ، والغرفة الحارة ، وقد جلب الماء الى هذا القصر في مجار وقنوات تثير التعجب لاتساعها واحكام بنائها ، تدخل القصر تحت اسس الجدار الشمالي الشرقي وتمر تحت تباليط الصحن في قنوات واسعة مبنية بالآجر ، ومغطاة به ، الى الفسقية التي يتوسط الصحن ومنها يوزع على الحمامات والغرف ، اما تصريف المياه المتعفنة فتمر في مجار اخرى تحت التباليط ايضا بعضه يذهب الى آبار عميقة في القصر نفسه ، وبعضه يخرج من تحت الجدار الجنوبي الغربي .

وقد كسيت جدران الغرف الرئيسية بزخارف على الجص تمثل عناصر نباتية او هندسية او كتابية ، وقد استعملت الزخارف النباتية كالاوراق المختلفة للعنب او الاكافتس ، والوريدات وجرائد النخل وعناقيد العنب في مساحات مربعة احيطت باطر جميلة من الاشكال الهندسية كالدوائر والمربعات او الاشكال النجمية او الخطوط المستقيمة او المنكسرة وغيرها .

وقد اظهرت هذه الزخارف الروح التجريدية للفنان فبتحويره لها عن اشكالها الطبيعية ابعد عن نفسه تهمة التقليد والنقل عن الطبيعة وحشر شخصية وعواطفه في القطعة المرسومة فلم يعد يرسم ورودا واوراقا او اغصانا ملتوية او متشابكة بل اصبح يرسمها كما تتفاعل مع انفعالاته واحاسيسه .

اما الاشرطة الكتابية فتتمثل في آيات قرآنية او ادعية صالحة ، كتبت بالخط الكوفي الجميل ، اما غائرة او بارزة وقد لونت الغائرة بالوان زاهية كالازرق والاحمر .

تحتل هذه الزخارف الجصية النصف الاسفل من الجدار او تستعمل كعضادات واطر للشبابيك والمداخيل وقد الصقت على الجدران بمسامير حديدية فوق طبقة من الجبس .

اما اعالي الجدران فكانت تزدان بقطع من الزليج ذي البريق المعدني التي عثرنا على قطع جميلة منه ، مثل تلك التي تزين محراب جامع القيروان ، مما يدل دلالة واضحة على ان صناعة هذا النوع الجميل من الفخار كان صناعة افريقية .

لكن اهم ما تفخر به رقادة هو تلك المؤسسة العظيمة التي كانت تسمى بيت الحكمة وهي الجامعة التي اسسها ابراهيم الثاني لدراسة الرياضيات والفلسفة والفلك والطب وغيرها من العلوم غير الدينية لانه هو نفسه كان مولعا بعلوم الرياضيات خاصة بالفلك والتنجيم .

ورغم ان اخبار هذه الجامعة نادرة غامضة لان كتب التراجم اهملتها شديد الاهمال فلم تكتب عنها وعن اخبار علمائها الا نادرا ، لان مؤلفي هذه الكتب كانوا ينظرون الى هذه المؤسسة الجديدة نظرة غير مرضية . ولان الامير ابراهيم نفسه كان مولعا بالرياضيات وخاصة الفلك والتنجيم فقد اسس هذه الجامعة وجلب لها اساتذة في كل الفروع العلمية من الشرق وخصص لها اموالا لشراء الكتب وآلات الاختبار والتجربة واوقف لها كتبة وقيمين ونساخين ومترجمين واشرف بها على مجالس المناظرات والمجادلات المشهورة بين رجال السنة والمعتزلة وكان كثيرا ما يحضر هذه المجالس ويشترك فيها كما كان ابنه عبد الله الثاني يحضرها ويشترك فيها ايضا خاصة وقد كان عالما له نظر حسن في الجدل كما يقول ابن الاثير .

وهذه الجامعة هي التي ارست قواعد المدارس العلمية في افريقية حتى برز فيها مؤلفون وعلماء دونوا في جميع فروع العلم ، خاصة الطب الذى تعدد المختصون فيه حتى اصبح لبعضهم شهرة واسعة فيما بعد كاحمد ابن الجزار وغيره وكان بعض اطباء الدار يجلسون في شوارع القيروان يكتبون الوصفات للناس بدنانير ويصرفونها على الصيادلة لجلب الدواء .

كذلك نشطت هذه الجامعة حركة الترجمة عن اللغة اللاتينية خاصة وان اغلب الامراء الاغالبة كانوا يتقنون هذه اللغة ومن اشهر رجال بيت الحكمة اسحاق بن عمران الطبيب وهو الذى ظهر به الطب بالمغرب ، وعرفت الفلسفة ، وكان طبيبا حاذقا مميزا بتأليف الادوية المركبة بصيرا بتفرقة العلل ، وقد الف كتبا هامة منها : كتاب الماليخوليا ، ويصفه المؤرخون بانه لم يسبق الى مثله ، وكتاب في الفصد، وكتاب في النبض، كذلك اشتهر من بين مدرسيها اسماعيل الطلاء الذى كان يدرس الرياضيات وكان غاية في النجامة ولما انقرضت الدولة الاغلبية اضطر للعمل بتحضير الطلاء للسيدات (ماكياج) لضمان قوته لان بيت الحكمة انقلبت في العصر الفاطمي الى مقر للدعاية والجدل الديني بين رجال الشيعة واهل السنة .

اما حركة التعريب وتدريس العربية فقد سبقت العصر الاغلبي بكثير فقد قدم علماء العربية ومدرسوها منذ القرن الاول ، فما ان اهل القرن الثالث حتى اصبحت مدرسة صلبة الاسس انجبت علماء اجلاء من ابناء البلاد تضاهي ما كانت عليه اختهاالمشرقية وكان على راس هذه المدرسة عبد الملك ابن قطن الفهري ، شيخ اهل اللغة العربية والنحو والرواية ورئيسهم وعميدهم والمقدم في عهده وزمانه عليهم ، وكان من احفظ الناس لكلام العرب واشعارها ووقائعها وأيامها ...

تطورت ابحاث هذه المدرسة حتى وصلت مرحلةالاختصاص في العصر الاغلبي فقد تخصص المهدى في النحو واخبار العرب ، وامتاز حمدون النعجة بغريب اللغة وامتاز اللؤلؤ في النقد والغريب ، وله كتاب في الضاد والظاء وابن الوزان بالعروض وغيرهم كل تخصص في فن وتبرز فيه كما تخصص بعضهم في بعض الدراسات الادبية دون غيرها ، ووصل ببعضهم التعمق الى اختصاصات ضيقة جدا كان يهتم احدهم بدراسة شاعر واحد فقط فالداروني مثلا تخصص في دراسة شعر ذي الرمة وكان اعلم الناس به ...

وكانت منتديات رقادة والقيروان تعج بالشعراء الظرفاء لكن مؤلفي التراجم غفر الله لهم اهملوا هؤلاء الزناديق حسب رايهم فلم يترجموا لهم الا نادرا لذلك قلت معلوماتنا عنهم ، ومن النتف القليلة الواردة نستطيع ان نقول ان شعراء القرن الثالث في افريقية تكلموا في كل اغراض الشعر العربي ولكن شعرهم بين الجزالة والضحالة اما اغلبيتهم فيقلدون شعراء الشرق .

وكان الفقهاء ينظرون الى الشعراء نظرتهم الى مارقين زناديق فقد شهد اربعون عدلا ضد الشاعر الفزاري على انه يستهزىء بكلام الله فقتله القاضي وصلبه؛ يقع هذا في القيروان ، بينما نجد ان النشابشتي وهو من جلة علماء العراق في القرن الثالث يتبع سير الخلعاء من الشعراء امثال ابي نواس والشاعر الخليع وغيرهما ويلم نتف اخبارهم من الاديرة والحانات واماكن اللهو وغيرهما ليدونها بدون تحرج بكل ما فيهما من مجون ومروق على الدين او على الاخلاق العامة .

سجل لنا كل ذلك في كتابه الدرايات الذي يعد من اجمل كتب ادب المناسبات والمجالس في الادب العربي .

لكن يبدو ان الامراء الاغالبة الذين تمتع اغلبهم بثقافة عالية واسعة كانوا يعقدون مجالس الادب والشعر دون اى اعتبار للفقهاء المتزمتين ويحترمون الشعراء ويصلونهم بالصلات السنية فقد ذكرت النصوص ان بكر ابن حماد الشاعر الاديب كان ينتجع الامير ابراهيم الثاني برقادة ويمدحه بغرر القصائد فقدم عليه ذات يوم فمنعه فتى الامير بلاغ من الدخول لان الامير مصطبح مع جواريه في الجنان فاحتال حتى ابلغه قطعة شعرية ارتجلها منها :

خلقن الغواني للرجال بلية ... فهن موالينا ونحن عبيدها
اذا ما اردنا الورد في غير حينه ... اتتنا به في كل حين خدودها

ثم ارتجل بيتا آخر :

فإن تكن الوسائل اعوزتني ... فإن وسائلي ورد الخدود

وبلغت الرقعة الى الامير فقراها ودفعها الى الجواري فانشدنها واظهرن سرورا بها وشفعن اليه لى ان اخرج الى بكر بن حماد صرة مختوما فيهـــا مائـــة دينـــار .

وبعـــد .

فهذه سيدى الرئيس عجالـة عن تاريخ رقادة التي يشرفها اليوم ان تبعثوا لها تاريخها الحافل من جديد بعد ان رقد الف عام او ما يزيد ونبتهل الى المولى جل وعلا ان يمدكم بالعافية والسعادة كي يصبح مجد رقادة ومجد تونس ازهى واعظم مما كان .

هذا نص المحاضرة التي ألقيت بين يدي السيد الرئيس الحبيب بورقيبة بمناسبة مرور الف عام على تأسيس مدينة رقادة .

م ش

يقظة التاريخ

شعر : الشاذلي عطاء الله

بعد طول المدى وبعد العهود   عاد للقيروان مجد الجدود
عاد تاريخها المضمخ بالاجلال لا بالشذى ولا بالورود
بعد الف وبعد تسعين عاما   ذاع في الروض نشره من جديد
عاد للحرف نبله بعد ذل   وضياع وعاد عز القصيد
بعد أن غادر الامير عبيد الله قصر العروس مشوى الوفود
لم يقم شاعر بانشاد شعر   لا ولا قام مطرب باصلاح عود
ومشى الصّمت في مقاصير قصر الصحن حتّى انتهى لغيل الاسود
ومضت فترة ورقادة الغناء تغفو على رمال زرود
طمرتها مياهه واطاحت   بالذرى الشم والبناء العتيد
ثمّ عاد التّاريخ سيرته الاو   لى وقد لاح فجر عهد جديد
حين رف اللوا على شرفات الصرح يومي إلى التقاء العهود
ويحيي الحبيب يوم وصول الر   كب للقصر تحت خفق البنود
ايه رقادة الممجدة التا   ريخ في امسك القريب البعيد
ها هو الحظ قد حباك بما تبغين من سؤدد ومن تاييد
فانعمي بالحياة وابتسمي للمجد يلقاك في الصّباح الجديد
واعيدي على مسامعنا اللهفى حديثا يرويه سفر الخلود
عن ظهور الحضارة البكر في وا   ديك والنجم آخذ في الصعود
ومغانيك عامرات باهل الفن اذ كنت انت بيت القصيد
عن اياد بيض على العلم والآ   داب والشعر والخيال الفريد
قبل بغداد ضم قصرك بيت الحكمة المنتمي لازهى العهود
شع منه الضّيَاء فعم بلادا   لم تكن قبل في سجل الوجود
يوم لم يبن أزهر وبدت بغداد في صمتها وراء الحدود
والثقافات لا تجاوز مفهو   ما وروحا تكبلا بالقيود
وجد العلم في رحابك آفا   قا فساحا فنال اغلى رصيد

ومشي الفكـر فِي البلاد طليـــــقا لـم يقيد بنزعة أو جمود
ثُـمّ دار الـزمـان دورتـه النكـ ـرا فكـرت عليك خيل البـريـد
لـم تطـل مـدة ازهـارك شـان الـ ـو ضع ان لم يحظ بـرأي سديد
فـاصاب الجفـاف روحك حتّـى اصبح النبت كـالهشيم الحصيد
وانمحت روعـة القصور وعـاثت فِي البنـا والـرياش ايدي العبيد
وانقضت فتـرة الفتـور وعـادت نبضات الفؤاد بعد الـركود
وانتشى الـروض حيـن هبت عليه نسمـات يحملـن عـرف الخلود

واهـابت بك الحيـاة فجـال الماء فِي العـود والشذى فِي الـورود
ومشى الاخضرار في كُـلّ غصن وبـدا الازكهـار فِي كُـلّ عود
وشدا عند مطلع الفجر شحـ ـرور وحي الضيا بحلو النّشيد
وتعـالى هتـاف رقـادة اللهـ ـفى وحنت إلى الحبيب الحفيد
هـكـذا عـادت الحيـاة لارض شهدت حالتي فنـا ووجـود
ورات نضرة النعيم وبؤس الـ ـعيش والعـود للـرخـا من جـديد

يـوم شـاءت ارادة اللـه ان تخـ ـتارهـا درة لعقـد نضيد
ويخص المنـاخ في كُـلّ فصل بضحى منعش وجـو فـريـد
ويثـيـر اهتمـام قائدنا الاعـ ـلى إلى الاعتنا بـوادي زرود
فـراى فِي حضـوره خيـرما يهــديه للقيروان فِي يـوم عـيد
وراى فِي بنـائه القصـر ما يـر قى بـرقـادة لاوج الصعـود
فبدت هـذه الارادة فيمـا قـد رجـونـا مـن زمـان بعيد

فـاذا القصر تحفـة ابـدعتهـا الـعبقـريـات للتنزيـل السعيد
لـم تكـن روعـة الخـورنـق او غمـدان حتى ولا قصور الـرشيد
لتضاهيـه في الجمـال اذا مـا فـاضل الـذوق بين ساق وجيد
يـا ابنة القيروان دون مخـاض فخـرت امهـا بخيـر ولـيد
سوف لا تفخـرين بـالنسب الوضـاح والام سر هذا الـوجـود
انـت مـن تـربـة غـذتهـا بعطف وبظـل مـن الحنـان مـديـد
انّمـا انـت دون ريب سنـام الـعز في ذروة الفخـار العتـيد
يـا نقي الفـؤاد من لـوثـة الفـو ضى وآثـار وصمـة التقلـيد
ومغذي الامجـاد ان زهـد التّـا ريخ في مهـدهـا بمجد جديد
هـذه الضّـاد درة اللغـة الفصـحى وام اللغـى وازكـى ولـود

لقيت من عقوقنا ما يلاقيـ ـه غريب من الجفا والجحود
واصيبت بطعنة من بنيها اوشكت ان تصيب حبل الوريد
وراوا انها تنوء بثقل الصـ ـور الموحيات بالتجديد
فارادوا لو انها تتخلى عن بديع الحلى وضافي البرود
لثياب مهلهلات عليها وضر من تخلف وجمود
ولشعبية التعابير واستبـ ـدال ألحانها برقص القرود
اننا نمقت الجمود ونأبى لغة الشنفرى وفنّ لبيد
انّما لا نبيح بلبلة الفصحى ولا وصمها بداء الركود
فلرحمها بالذي حميت به الامجـ ـاد من كيد ناقم وعنيد
يا حبيبا ناجيته بخيالى كُلما غاب شخصه عن شهودي
وتمثلته يعيد لشعري نغما تاه خلف لحن شرود
انت عندي ولست اعلن سرا روح شعري اذا نظمت قصيدي
هذه اللفتة الكريمة ردت لبلادى اعتبارها من جديد
هذه غاية الاماني وما يصـ ـبو إلّى نيله فؤاد العميد
ليس للقيروان امنية اخـ ـرى وقد طوقت بعقد فريد
فهنيئا لقصر رقادة الغنـ ـا بما نال مجده من خلود
وهنيئا لدار عقبة بلالا مثال تجبى لها بغير رصيد
وهنيئا لراية خفقت في السـ ـلم والحرب فوق اعلى البنود
ولتحط روحك السعادة وليغمـ ـرك فيض من الغنى الحميد
ولتكن في رعاية الله انى كنت تحظى من لطفه بالمزيد
وليردد فم الزمان ابتهاجا عاد للقيروان مجد الجدود

رقادة : 16 ـ 8 ـ 1969

شـ ـ ع

الحب والحنان من رقادة

شعر : محمد مزهود

بك استيقظت رقادة من رقودها … وشعت بامر منك شمس سعودها
وعادت لها ايامها البيض فانجلت … باقبالها عنها اللّيالي بسودها
وباركت الدنيا لها مجد بعثها … على يمن عهد بعد طول هجودها
وعمت بها البشرى على خير موعد … واشرقت الانوار في يوم عيدها
فلم تر قبل القيروان مفاخرا … لالىء شعت في نضيد عقودها
كهذي التي لم يات دهر بمثلها … ولا عرفته من سحيق عهودها
فقد ادركته سؤددا اى سؤدد … وضمته مجدا طارفا لتليدها
كاني ارى من عالم الغيب ثلة … توافد من غلب الرجال وصيدها
على الموريات القدح من كل ضامر … حديد القوى عند النزال شديدها
تحيط بها من كل صوب جحافل … تطل علينا خافقات بنودها
تظلل بيض المرهفات كماتها … وسمر العوالي زاحفات جنودها
تسيل بهم هذي البطاح ومارأت … كيومك من ماضي القرون بعيدها
ولاحت وجوه لم تخر جباهها … ولاطاطات الا لفرض سجودها
غطارفة شم العرانين بسل … لقاء المنايا في لقاء أسودها
بنو الاغلب الاقحاح والعصبة التي … تغض لها الابصار عند شهودها
بها عجت الساحات من كل جانب … وتاهت بابراهيمها في وفودها
بدا ملء برديه جلال وهيبة … عليه العلى اضفت سنى برودها
وقد ظل مبهورا تفاجئه القوى … بما لم يجيء عهد بمثل عتيدها
والقى على هذي المواكب نظرة … تحدى بها الاعجاب افق حدودها
على ثغره ظلت ترف ابتسامة … معاني الرضا مقروءة لشهودها
ونادى مناد من كوى الغيب مشرف … يدوى دويا في خضم حشودها
له الارض القت سمعها حين رن في … مناكبها اغوارها ونجودها
الا ان دوح المجد مازال باسقا … بارض درجنا قبل فوق صعيدها
ومازال ينمو العز في جنباتها … وينبت ما فيها دوام خلودها

اقامت بها العليا ولم تك قلبت　　من الصفحات الغر غير مجيدها
الا ان هذا الحقل ما حال او ذوى　　هذا بالرياض الزهر غض ورودها
ولا انطمست تلك المعالم أو عفت　　ولم تضع الاحفاد مجد جدودها
ستعمر في هذا الحمى بيت حكمة　　اضاء على الدنيا قديم وجودها
فكم اغدقت نعمى وكم فتحت نهى　　وكم امتعت روادها بورودها
سرى ذكرها في الخافقين وأينعت　　لها ثمر راقت بمخضر عودها
وطبقت الافاق شرقا ومغربا　　بشتى علوم افردت بمفيدها
سيسعد محياها وتشرق ثانيا　　وليس سوى ليث الحمى بمعيدها
فهذا الّذى اهل الرباط رووا لنا　　احاديث عنه اذهلت بعيدها
وهذا الّذى شد الصفوف بعزمه　　ووحدها فالتام شمل بديدها
وهذا الذى ان اججت نار فتنة　　بحكمته يخبو لهيب وقودها
وهذا الّذى شاد المفاخر ها هنا　　وما كان يوما غيره بمشيدها
ونحن انتظرنا من قديم زمانه　　يظل بماثور الخصال حميدها
وتعرف فيه القيروان مقيلها　　على قدر من عاثرات جدودها
الم يك سحنون يحدث أنه　　سيرجع للأوطان عز عهودها
ويدرا عن احرامها كل موبق　　ويشرق فيها كوكبا لسعودها
ينزه دين الحق عن كل بدعة　　تلقفها مغو وتاه ببيدها
بها قعدت عن حوزة السبق همة　　وحل الذى قد حل يوم قعودها
سيصقل بالهدى المدارك والنهى　　ويجلو بنور العقل رين صديدها
يشد عرى الاسلام بعد انفكاكها　　وما رث منها يستوى بجديدها
ويكشف بالراى الذى لا يضل عن　　مفاهيمه ما حاطها من جمودها
فقد كان موهوبا وليس ببالغ　　مداها من الافهام غير سديدها
وان لم تع الغايات بعض طوائف　　فتلك التيقد اوغلت في جحودها
قفوا خشعا واحنوا له الهام واذكروا　　له ايديا عمت بمغدق جودها
وهل ينكر الرائي مساعيه التي　　افاض عيون الخير فضل جهودها
فقد شغلت كل المحافل عزمة　　له بهر الدنيا عظيم صمودها
وما برح التاريخ يكتبها له　　مئاثر يتلو الدهر سفر خلودها
وما انفكت الايام تهتف باسمه　　وما هتفت الا بذكر سعيدها

حبيب العلا يا من اهبت بامة　　لترقى الذرى مامونة في صعودها

بذرت لها خير البذور ميمنا   فكان اجتناء العز بعض حصيدها
وقامت صياصيها على حكمة وهل   تدعم بنيان بغير عمودها
وارخى الرخا في زاهرات ربوعها   ظلالا واي لم يلذ بمديدها
لئن كنت قد خلصتها من قيودها   فان الايادي اوثقت بقيودها
فهذي بواديها نضتها بواليا   واخرجت الخبء الذي في مهودها
وهذي فيافيها تحول حدائقا   تسر بما في غلبها من نضيدها
وهذي المغاني كالغواني تبرجت   بزينتها في مجتلى يوم عيدها
تبثك معروشات جناتها هوى   وتغريك منها مائسات قدودها
ففي كل صدر من رؤاها اختلاجة   وفي كل ثغر رشفة من برودها
حبيب العلا ماذا اقول ولم اكن   لاملك في الفصحى لسان لبيدها
سوى انك المعنى الذي لم تحط به الل   غات ولو القت بما في رصيدها
لك القيروان اليوم تفتح حضنها   ويلقاك بالترحاب وادي زرودها
وتهتف في اليوم الاغر صوادح   ترن شواديها بعذب نشيدها
فقد اصبحت رقادة بك تزدهي   كما قبل بغداد ازدهت برشيدها
ليهنك فيها القصر جاء محققا   بلوغ الاماني منجزا لوعودها
وقد فتح الابواب فادخله ءامنا   رعتك السماوات العلى بجنودها
والقى عليك الله برد سلامه   وحفك من الطافه بمزيدها
ستحيي به رقادة مجد امسها   ويزدان بعد اليوم عاطل جيدها
وتزهو ليالي الانس فيها معيدة   ليالي كانت تستبي بفريدها
ويزهر روض الشعر بعد ذبوله   وينظم سمطا من سنى عقودها
ويلهم فيها الوحي ءاية سحره   وتحدو القوافي قافلات شرودها
وانت بها مجلى العيون وبهجة النـ   ـفوس ومحييها وبيت قصيدها

م. م.

رقادة ـ 16 ـ 8 ـ 1969

عرس رقادة الجديد

شعر : محمد الناصر الصدام

ايه رقادة اطلت الرقادا ... قد افقنا فلتسعدينا معادا
ان لك اليوم حقق الله بعثا ... فلقد كان عهدنا ميعادا
اشرقي في الغياهب اليوم شمسا ... واضيىء الوهاد والانجادا
فلقد كنت في الشمال منارا ... يبعث الوعي والهدى والرشادا
واعيدي عهد الاغالب الغلـ ... ـب وضمي إلى الطريف التلادا
وافيضي العلوم منك ينابيـ ... ـع تغذي الحجى وتشفي الفؤادا
والحفي في حضارة اليوم ركبا ... تخذ البدر والنجوم مرادا
واجعلي القيروان كالامس فاقت ... في مدى الفكر اختها بغدادا
وتحدت عواصم الارض سبقا ... في ميادين تبهر الروادا
زخرت بالعجيب من كل فن ... ظل يروي تاريخها ءامادا
كم اقامت ابناؤها من صروح ... للمعالي وشيدت امجادا
عرفت هاهنا معاقل للعز ... وارست به للهنا اطوادا
لم تزل قصة المفاخر تروى ... وتثير الاباء والاحفادا
ذاع لابن الفرات أروع ذكر ... يوم قاد الغزاة والاجنادا
خاضها في الخضم حربا عوانا ... اسدا كان يرهب الاسادا
وصقلية بها قامت الاثـ ... ـار ءاثار فتحه اشهادا
ايه رقادة التي انجبت قبـ ... ـل فحولا ائمة اسيادا
والتي اخرجت جبلة ذا الصو ... لة وابن الجزار والحدادا
منك ازجى زيادة الله جيش النـ ... ـصر يختال عدة واعتدادا
يتحدى العدى ويثخن في الار ... ض ويزداد قوة وعتادا
يقذف الرعب في القلوب ويروي ... بالفتوحات في البلاد الزنادا
دحر الروم في موانيه دحرا ... وعزا ارضه وابلى جهادا
لم يبال في نصرة الدين هولا ... وقضى في سبيله استشهادا
كان بالحزم ياخذ الامر فانقا ... دت اليه كل الصعاب انقيادا

كم بـافريقيا بنى من صـروح ... للمعـالي بهـا الـزمـان اشـادا
ايـه رقـادة لبعثك بشــرى ... قد احـالت ايـامنـا اعيــادا
اي بشـرى احيت معـالم فخر ... ذكـرتنـا الابـاء والاجـدادا
قد دعـاك الحبيب : يكفيك نوم ... فـاجبت الـدعـا له حين نـادا
فبدا القصر شامخـا مشمخـرا ... يتلقـى الاقبـال والاسعـــادا
ايـن منه خـورنـق وسديــر ... وقصور بـرافدي بـغــدادا
ان تـكن تلك حل فيهـا ملـوك ... واروهـا اصلاحهـم والفسـادا
فلقـد حـل هـاهنـا بسـلام ... ءامنـا من ارى الهدى والسدادا
لاح فيـه منور العقـل والاف ... ـهام والفـكر كـوكبا وقـادا
لاح يضفي في موكب العز والفخ ... ـر عليـه مجلالـه ابــرادا
شاد بنيـانـه على اسس المجـ ... ـد فلله مـا أقـام وشــادا
حرر الشعب اعلن الامرشورى ... رفع المستوى وحل القيـادا
راض كل الصعاب حتى اطاعت ... وز كا سعيه فـاحيا البـلادا
ايها القصر كنت في مفرق التا ... ريـخ تـاجا يكلـل الامجــادا
عدت في عهدنا وقد صدق العهـ ... ـد واسعـادنـا بك اليوم عــادا
فلنعدهـا كمـا بدت دولة للسـ ... ـلم تهـدي وتنشر الارشـــادا
ان ركن السلام في دولـة الاسـ ... ـلام ان وحدت يكون العمـادا
ومبـادىء الاسلام جلت قديما ... عند اهل العقول عن ان تعـادا
وهو مبدا الحبيب من اسند الام ... ـر إليـه فـزانـه اسـنـادا
قـاد نحو المدى مسيرة شعب ... فك عنـه القيود والاصفـــادا
وازاح الضلال والجهـل والاو ... هام من بعدما حماه اضطهـادا
مذ تولى أموره ابعد الاخـ ... ـطار عنـه وقرب الابعـــادا
فلتعش سالمـا يمـدك رب العـ ... ـرش من فيض عونـه امـــدادا
وبك القيـروان تبلـغ شــاوا ... ويـزيـد الرقي فيهـا ازديـادا
وتلاقي حضارة وازدهــارا ... يغمـران الحـزون والاوهـــادا
وبك القصر قصر رقـادة يبـ ... ـقي على الدهـر عـامرا ءامادا
مثلمـا كان يصدر الامر والحكـ ... ـمـة قبـلا وينشـر الاسعـــادا

م. ن. ص.
رقادة ـ 16 ـ 8 ـ 1969

الفكر والحضارة بين الوحدة والتعدد

بقلم : رمضان لاوند

- ١ -

الفكر تراث بشرى مشترك

وهو المادة التي يحاول الكثيرون في عصرنا هذا ان يعطوا تجربتها طابعا عالميا يتجاوز الحدود الحضارية او القومية على الاقل.

وفي ضوء هذه المحاولة نبتت نابتة الدعوة الى الفكر العالمي الواحد وبالتالى الى الوحدة الحضارية في العالم كله.

ومن الطبيعي ان تقوى الدعوة الى الوحدة الحضارية بسبب ان الحضارة هي موقف فكري عام.

واذن فوحدة الفكر المزعومة هي المقدمة الطبيعية والمنطقية لدعوة الحضارة الواحدة في العالم كله.

والثابت ان دعوة التوحيد هذه قد وضعت خطوطها العامة منذ زمن بعيد. لكن خطوتها التنفيذية الاولى قد ظهرت لاول مرة ، على صورة سياسية اقتصادية اجتماعية قانونية في عصبة الامم التي نشأت بعد نهاية الحرب العالمية الاولى.

وقد فشلت هذه المحاولة من الناحية العملية حين انفجرت حرب الحبشة التي اعلنها الجانب الإيطالي بقيادة موسيليني كما سقطت في عقل العالم وضميره حينما اعلنت الحرب العالمية الثانية بمبادرة من قبل الجانب الالماني وبقيادة هتلر.

ولكن العالم الجديد الذي نشأ بعد الحرب العالمية الثانية لم يلبث حتى عاد الى هذه المحاولة مرة اخرى في هيئة الامم المتحدة تلك الهيئة التي لا تزال ناشطة حتى يومنا هذا بمجلسها العام ومنظماتها الدولية المتعددة وبمجلس امنها المعروف.

وهي محاولة عملية لاثبات ان في وسع عالم اليوم ان يحقق وحدة حضارية شاملة على صورة من الصور.

لكن هذه الهيئة العالمية لم تلبث حتى فوجئت بالازمات الدولية الكبيرة التي تفجرت بها وتحت ضغطها الحرب الكورية اولا، ثم عقبتها الحرب الفيتنامية التي لا تزال مستعرة الاوار حتى اليوم.

يضاف الى ماسبق ان عددا كبيرا من رجال الفكر الغربيين قد دعوا الى هذه الوحدة وحاولوا ان يقعدوا لها القواعد الثابتة وان يضفوا على هذه القواعد طابع العلم او الفلسفة. فهناك جاك بيرك المستشرق الفرنسي الذي نادى بحتمية هذه الوحدة الحضارية العالمية مستندا الى عاملين اثنين مهمين :

اولهما : ظهور عصر التحرر Décolonisation الذي عقب عصر الامبراطوريات الاستعمارية الناشئة في القرن التاسع عشر.

ثانيهما : ظهور عصر « الاتمتة » Automation ويقصد به تحول الصناعة التي يتدخل فيها العامل الى صناعة تعمل بطريقة ذاتية مستغنية عن العامل نفسه.

والملاحظ ان الدكتور بيرك من المتفائلين في تحقيق هذه الوحدة العتيدة.

والى جانب جاك بيرك يعلن الفيلسوف المؤرخ ارنولد توينبي عن رأيه في توحيد العالم حضاريا بعد ان تصبح الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة لشعوب الكرة الارضية كلها. انه يرى ان كل ماسوى هذه الحضارة سيذهب مع الزمن وفي وقت قريب جدا.

ولو حاولنا ان نلقي نظرة فاحصة على الجانبين العملي والنظري لدعوة الحضارة الواحدة ذات الموقف الفكري العالمي الواحد لوجدنا انهما نابعان من

ارادة القوى المسيطر الذى يتمتع بتفوق اقتصادى متين وبأجهزة اعلامية لا تنافسها الأجهزة الاعلامية التي تملكها شعوب الأقتصاد الضعيف والمتخلف.

هذه حقيقة واقعة بالنسبة لهيئة الامم المتحدة التي تقوم قاعدتها فوق ارض الولايات المتحدة وتخضع لنفوذ الاقوياء، كما هي حقيقة واقعة بالنسبة لرجال الفكر الذين ينتسبون الى شعوب غربية. اما جاك بيرك فهو مواطن فرنسي. واما ارنولد توينبي فهو من البريطانيين.

الشيء الثابت اذن هو ان الخطوة التنفيذية والموقف الفكري النظري هما من صنع الاقوياء او من رجال صنعتهم عقلية الاقوياء.

على ان هذا لا يمنعنا من التسليم بحسن نية البعض من الدعاة الى هذه الوحدة الحضارية الفكرية. لكن حسن النية شيء والادراك الحقيقي لدور الفكر وابعاده شيء آخر.

وهنا نعود مرة اخرى الى الفكر نفسه.

هل صحيح ان الفكر ذو طابع انساني في حقيقته ومحتواه ؟

وهل يمكن ان نعتبر التجربة التي يصدر عنها هذا الفكر، تحت ضغط الظروف والحاجات والاعتقادات، تجربة ذات طابع انساني شامل ؟

من البدهي ان كل موجة حضارية ظهرت في تاريخ البشر كانت ولا تزال ترافقها فلسفات معينة وعقائد خاصة وموازين ذاتية واديان وطرائق اصيلة تتحدد بها رؤيه مختلفة عن رؤية الموجة الحضارية السابقة او اللاحقة.

ولعل ظاهرة التناقض العنيف بين المواقف الفكرية التي يتميز بها العصر الحديث في الشرق والغرب والشمال والجنوب ان تكون الآية والعلامة على استمرار التباين بين هذه الرؤى وعلى عمق الجذور المتباعدة التي ينتمي اليها الفرقاء المختلفون.

والملاحظ ان النمو المدهش في اجهزة الاعلام واساليب الدعاوة وخطط

التبشير الديني والفكري لم يقلل من حدة هذا التناقض ولم يساعد على وضع حد للخلافات الاساسية التي يستحيل زوالها مادامت المواقف الفكرية القائمة وراء هذه الخلافات مستمرة ثابتة.

الشيء الذي يلفت النظر ان اطماع الدعاة الى الوحدة الحضارية تتجاوز الرؤية التي يضعها قانون الاحتمالات. والثابت ايضا ان افكار هؤلاء الدعاة نابعة من موقف القوة الذي يتمتعون به. فهم بحكم ظروفهم يفكرون بعقلية صاحب الحقوق المكتسبة. ويرون الاشياء في ضوء الامر الواقع الذي كان ولا يزال حصيلة القوة. القوي يشعر بالحاجة الى الاحتفاظ بأسباب قوته والتزيد منها تحوطا من المفاجآت.

وفلسفته للأشياء نابعة من هذا الإحساس الخاص الذي يرتبط به مصيره المادي وتتصل به مكاسبه التي اتخذت صفة الامر الواقع.

ولما كان هذا الامر الواقع قد جعل من سياسة التوازن الدولي قاعدة متشكلة في ضوء مكاسبه فان اي تنازل عن حجم العلاقات القائمة في اطراف هذا التوازن هو في حقيقته تنازل عما يعتبره اصحابه حقا شرعيا لهم.

في ضوء هذا التشخيص يرفض الفريق الذي يتحدث ويفكر من مركز القوة ان يدخل في حوار مع الفرقاء الآخرين مالم تكن مكاسبه مضمونة.

وفي ضوء هذا التشخيص بالذات يصبح الحوار في الميدان الفكري النظري كحوار الطرشان.

مشكلة الصهيونية في عالم اليوم ، رغم انها من حيث الحجم المادي هي مشكلة مليونين ونصف مليون من الغرباء الهابطين فوق ارض فلسطين، قد اصبحت عنوانا على الصراع بين المكاسب التي يحققها الامر الواقع وبين الشرعية النابعة من حق كل شعب في تقرير مصيره والحفاظ على ترابه الوطني وكرامته الانسانية.

ولما كانت الصهيونية بظروفها الدولية المعروفة تتصرف من مركز القوة

فقد عجزت هيئة الامم المتحدة بكل مجالسها ومنظماتها عن مواجهة المشكلة الناجمة عنها والتغلب على ما يسمى منها بالامر الواقع.

والملاحظ ان الضمير العالمي الذي تشارك في صنعه جملة من العوامل المادية والمعنوية لم يستطع ان يحزم امره في مواجهة المسؤوليات المترتبة عليها.

ان العالم كله بكل اشكاله الادارية والتنظيمية التي وضعت لغرض تحقيق « العالمية » في العلاقات الدولية، ولجعل الفكر الخالص حكما صالحا للفصل في الخلافات الناجمة عن طبيعة هذه العلاقات يقف منذ عشرين عاما في حالة عجز دائم امام قضية فلسطين.

وتتكرر هذه المأساة في الحرب الفيتنامية اليوم كما كانت في الحرب الكورية السابقة.

الثابت ان اطراف القضية قد ضاعت تحت وابل من الاعتبارات ذات الطابع القانوني وامام سيل من الدفوع التي يتبادلها الفريقان المتنازعان. ثم تبين بعد ذلك ان الحل العملي للحرب الكورية هو حل العودة الى خطة الامر الواقع والاعتراف بمكاسب الفريقين المتنازعين باعتبار ان كلا منهما كان يتصرف من مركز القوة.

اما في الحرب الفيتنامية فلا يزال الحل الذي يتحقق به السلم شيئا في ضمير المتفاوضين لان مركز القوة نفسه عند الطرفين لم يجد الخطة الملائمة له من اجل الحفاظ على ما يعتبره كل منهما حقا مكتسبا له. يحدث هذا بالرغم من وجود الهيئة الدولية التي يفترض فيها ان تكون مرجعا صالحا للفصل في مثل هذه الحقوق وبالرغم من الضغوط الصادرة عن العديد من ممثلي الفكر العـالمـــي.

الحقيقة التي تلفت النظر ان الفرقاء المتحاربين لا يزالون يصدرون عن مبدأ تقرير الامر الواقع ويصرون على الاحتفاظ بما يعتبرونه حقا مكتسبا لهم.

ولما كان الفكر تجربة ذات رؤية موصولة بظروف العيش وبالاعتقادات

وبجملة من الغرائز والمصالح ذات الطابع الاستراتيجي لكل فريق من الفرقاء، فانه مهما اتخذ طابع الشمول فهو خاضع لإطار لا يتجاوز في اتساعه ابعاد الامة او الامم التي تصنع في ضوئه محتواها الحضاري.

اذن فالحضارة ليست فكرا مجردا ولا هي قيمة مطلقة بل هي موصولة بمصالح اصحابها العليا ومكاسبهم المادية وقناعاتهم المعنوية وتجاربهم الفكرية الخاصة واذواقهم النابعة من تقاليدهم وتراثهم التاريخي.

ونحن لا نرى هذه الظاهرة موقوفة على ممثلي الحضارة الغربية المعاصرة وحسب ، انها في الواقع ظاهرة موقوفة على كل حضارة في كل مرحلة من مراحل التاريخ.

هكذا كان الامر بالنسبة الى اليونان القدماء.

كما كان الشأن نفسه بالنسبة لمن قبلهم من شعوب **الشرق الاوسط**.

وتتكرر المسرحية ذاتها عند من هم احدث عهدا من **هؤلاء واولئك**.

الفراعنة حين انتشروا في البلدان المحيطة بهم في افريقيا واسيا الغربية كانوا يحملون معهم الهتهم وكهنتهم ومعارفهم وموازينهم الاخلاقية بالإضافة الى فيالقهم العسكرية.

واليونان حين اتيح لهم الانتشار في جزر البحر الابيض المتوسط وكثير من شواطئه الغربية والشرقية بعد انتصارهم على امبراطورية الفرس في معركة سلاميس حملوا معهم ايضا مجموعة من الآلهة الاسطورية ثم جملة من الافكار الفلسفية التي اريد لها ان تكون ظاهرة تجاوز للاسطورة ثم بقيت رغم ذلك ذات طابع موصول بالاسطورة على نحو من الانحاء. كما رافقهم كهانهم وعلماؤهم وشعراؤهم يروجون لطرائقهم في التفكير ويدافعون عن عقائدهم واساطيرهم القومية.

ثم يأتي دور الشرق الاوسط في الموجة العربية الإسلامية. فقد حمل

الغزاة معهم رسالة دينية واضحة الملامح عالمية الاطماح انسانية الابعاد ومع ذلك فقد بقي قسم كبير من العالم المعروف يعتبر افكارهم ودينهم وسلوكهم واذواقهم اشياء غريبة عنه. ولم يكن التناقض بين العرب وغيرهم في ميدان الحرب وحسب بل رافقه تناقض مثله في ميدان الفكر والفن والعقيدة.

وحين نقفز الى العصر الحديث تواجهنا في موجة الحضارة الغربية الظاهرة نفسها. فان عالما من الافكار والاذواق والاعتقادات يحاول ان يمتد وينتشر عبر الدنيا كلها ثم هو يرفض كل صوت غير صوته. وينكر كل صورة غير صورته.

من هنا يتحدث دعاة الحضارة الواحدة من الغربيين. وفي ضوء هذا الموقف الذي يتكرر اليوم شأنه في الامس توضع الخطط وتبنى المؤسسات والمنظمات الدولية ومعاهد البحوث الانسانية.

ولعل من المفيد ان نعود الى رأي لارنولد توينبي في كتابه (دراسة في التاريخ). فقد جاء في المجلد الاول من مختصر هذا الكتاب الضخم ان الإتحاد السوفياتي قد بدأ يتنازل عن معالم حضارته السوفياتية، وقد اعتبرها توينبي واحدة من الحضارات الحية في عالم اليوم، ليندمج في صميم الحضارة الغربية.

وتوينبي يورد هذه الملاحظة في معرض اثباته للسيطرة المنتظرة التي ستتمتع بها الحضارة الغربية نهائيا في اقطار العالم كله. والمدهش في هذا الرأي ان توينبي قد نسي او تناسى مصدر الفكر السوفياتي، فلم يعد يذكر ان الماركسية التي نشأت عنها حضارة الإتحاد السوفياتي هي حصيلة فكر غربي صميم. وان حوضها الاساسي الذي ترعرعت فيه ونمت وازهرت هو التراب الاوروبي في النمسا وفرنسا وبلجيكا ولا سيما في بريطانيا بالذات.

فالسوفيات فيما وضعوه من اساليب التفكير واتخذوه من انواع السلوك وحققوه من المنجزات انما يصدرون عن المنهجية العقلانية المادية الملحدة التي وجدت شتلاتها الاولى عند كتاب القرن الثامن عشر ولا سيما الموسوعيون منهم. بل ان هذه الشتلات موصولة بجذور تذهب بعيدا في التراب الاروبي حتى بداية النهضة الحديثة التي اعلن فيها غاليليو ان المعرفة الحقيقية هي المعرفة النابعة من المقاييس المادية وحسب.

فالسوفيات والماركسيون من قبلهم لم يأتوا متمردين على العقل الغربي ولم يكتشفوا لانفسهم طريقا غير طريق التراث الاروبي الذي بدأ الغرب يغذيه منذ فجر نهضته الحديثة.

ان كل الذى فعله السوفيات حين اعلنوا مبدأ التعايش السلمي انهم التحقوا بوحدتهم الحضارية الطبيعية بعد ان ضمنوا استقرارهم الداخلي وحققوا الشروط السياسية والظروف الاقتصادية لانفسهم باعتبارهم دولة من دول الغرب.

واذن فالسوفيات لا يتنازلون اليوم عن حضارتهم كما يقول توينبي. بل يعلنون انضمامهم سياسيا الى معسكرهم الطبيعي الذي هو معسكر الحضارة الغربية.

ان الجهود التي يبذلها الغرب اليوم هي من اجل التغلب على تناقضاته الداخلية. يدفعه الى ذلك شعوره بتزايد اخطار داهمة تأتيه من الشرق الاقصى بصورة خاصة.

ولئن بقي بين السوفيات وبين ما يطلق عليه توينبي اسم عالم الحضارة الغربية تعارض او تناقض في بعض وجوه الرأي فهو اثر من اثار الصراع الذى جرى في العقود الاولى من هذا القرن ولا سيما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية.

يبقى بعد الذى ذكرناه ان نتساءل عما اذا كان في وسع الغرب الكبير على اختلاف انظمته السياسية وتباين المصالح عند دوله ، أن يضم الى مجموعته كلا من العالمين الآسيوي والافريقي. وان يجد عند شعوب هذين العالمين الاستعداد التام للتنازل عن شخصياتهما الحضارية الاصيلة ؟... هل تستطيع الماركسية الصينية مثلا ان تتغلب على التراث الصيني التاريخي وان تقنع ملايين الصينيين بالانضمام نهائيا الى معسكر الحضارة الغربية لا على أساس التجاور بل على اساس التوحيد والاندماج ؟...

والبوادر الاولى التي نجمت عن تزايد قوة الصين الشعبية ورسوخ قواعدها الاقتصادية والسياسية لا تشجع على الجواب بالايجاب... ان الذي يجري حتى

اليوم هو تسارع في الانفصال وتعميق للعزلة ومحاولة جادة لالحاق السوفيات بالغرب رغم شيوعيتهم واتهامهم بالرجعية والعودة الى البورجوازية الغربية من قبل الصينيين.

والثابت ان المستقبل المنظور لا يشجع على الامل في تحقيق اى نوع من انواع الاندماج ولا سيما بعد اعلان الثورةالثقافية الصينية التى كانت بمثابة الإعلان عن القطيعة الحاسمة بين شيوعية الصين وشيوعية السوفيات.

والملاحظ انه لم ينتصر عمليا للصين الشعبية من بين دول الشيوعية الغربية غير دولة البانيا التي لا يشدها الى العقل والعقيدة والتراث في الغرب اى عامل من العوامل. فالشعب الالباني في بطن اروبا اشبه بزائدة غريبة. اما بقية الدول والاحزاب الشيوعية فيه فان تعاطفها الليّن مع الصين نابع من رغبتها في الاستقلال عن تدخل الدولة والحزب السوفياتيين لكنها في الازمات وفي المواقف الحاسمة تجد نفسها في صميم الحضارة السوفياتية الغربية وما يصح على الصين هو صحيح ايضا بالنسبة لبقية الشعوب الآسيوية والافريقية ولا سيما شعوب العالم العربي الاسلامي.

في ضوء هذه الملاحظات نطرح السؤال الثاني :
هل هناك اطارات حضارية ذات افكار نابعة من تجارب اصيلة مستقلة ؟.
واين هي هذه الاطارات ؟
وماهو عددها ؟
وما هي مقومات كل منها ؟

الجواب عن هذا السؤال ذى الاطراف المتعددة يحتاج الى مناقشة مستقلة نعود اليها في مقالة لاحقة ان شاء الله. - يتبع -

ر. ل.

(*) الاستاذ رمضان لاونــد من رجال الفكر اللبنانيين المستقر حاليا بـدولة الكويت ؛ وترحب مجلة الفكر بمشـاركته آملين ان تسـاهم فى الحـوار بين رجال الثقافة فى العالم العربى شرقه وغربه .

ذكرى ليلة بحدائق القصر (1) بقرطبة

شعر : محمد الحليوى

يـا رعى الله ليلة فِي حياتي ... حملتْني إلَى الزّمَان البعيد
أذْكرتْنِي ماضِي القرون وعهداً ... فاتن الحسن من عهود الجدود
عـ اد زرياب وابن زيدون فيها ... والجواري – من بعد بعْثٍ جديد
هذه جنّة – كما حدّثونا ... كيف ضاعت – ولم تجد من مُعيد
يا رفاقِي تأمّلوا كُلّ شبر ... وتملّوْا مِن الجمَال الفريد
البساتين والازاهر والانـ ... ـهار والقصرُ فِي ظلال الورود
والمروج الحسان فِي رائع الزّيـ ... ـنة تبدو من كُلّ صنف نضيد
ها هنا الآسُ والقرنفل والنِّسـ ... ـرين فوّاحة ، بكلّ وصيد
وهناك الوادي الكبير يغنّي ... بالنمير المُصفّق العربيـ ـد

والسّواقي – والماءُ فيها لُجيْن – ... كضياء من الصبّاح الجديد
يالها ليلة إلى الفنّ تُنْمى ... وإلى الشّعر والغنا والقصيد
عاد فيها (زرياب) يعرض فنا ... حضنته الخضراء حضن الوليد (2)
جاء يستعرض العصور ويُحيي ... ما طوتْه من التّراث التليد
في صبايا وفي شباب غرير ... فاق بالحُسن والجمال الفريد
ورجال أعزّة من بلادي ... طلعوا ها هنا نجومَ سعود
والحبيب العظيم واسطةُ العقـ ... ـد وقطبُ الاجلال والتّمجيد
ليلة عشتُها فما ضرّ أنّي ... لم أعشْها فِي سالفات العهود

(I) حدائق القصر بقرطبة AL - CAZAR حدائق شهيرة على الوادى الكبير بقرطبة أقيمت فيها حفلة مشتركة بين الفرقة القومية التونسية والفرقة القومية الاسبانية بمناسبة زيارة السيد الرئيس الحبيب بورقيبة لهاته المدينة الاندلسية فى ماى السنة الماضية وحضرها الشاعر ضمن وفد التوأمة مع مدينة القيروان فى ذلك الشهر .

(2) زرياب التونسى هو صالح المهدى والفن الذى عرضه هو المالوف الاندلسى الذى حضنته الخضراء حضن الوليد خلال القرون .

نصبوها موائدا وأقَاموا ... مجلس الرّقص حذوَ نَهْر مديد
قد أحاطت به الازاهر ألوا ... نا حسانا من كُلّ صنف فريد
وغدا القوم حافلين سرورا ... في غناء وبَهجة ونَشيد
من شباب يتيه عزّا وفخرا ... بين شدو الهوى وعيش رغيد
وعذارى مثل اللالى حُسْنا ... تتهادى في قدها الاملود
ينهب الطرف حُسْنها وهي تعطو ... لهواها كَمثل ظبي شرود
وهناك العقائل البيض تسعى ... بين خَزّ ، وبين وشي برود
حاليات اللبات بالجوهر النّا ... در واللؤلؤ النّفيس الفريد
لابسات من الشفوف لباسا ... يَصف الخِصر واهتزازَ النُّهود

ثُمّ قامت للرّقص ثَمّ عذَارَى ... في صفوف بديعة التّنضيد
عازفات على المزاهر أنغا ... ما عذابا يصحبنها بالنّشيد
ضاربات على الاكف صنوجا ... كسنا البرق في فضاء مديد
مقبلات وتارة مُعرضات ... يتوعدن بالجفا والصّدود
كُلّ حسناء كالشهاب سناء ... وبهَاء أو كابتسام الوُرود
تنهل العين حسنَها وصباها ... ثُمّ تحيا في حُسنهَا المعبود
صاغها الله فتنة ونشيدا ... يتغنّى بسحر هذا الوجود

هي ذكرى تعود من بعد عام ... أتُراني أعيشُهَا من جديد
يا حنيني لمثلها ، فهي حسبي ... من زماني وعمري المجرود
إن تَعُدْ لي يَعُدْ إلَيّ شَبَابي ... وتفيأت ظلّ عيش سَعِيد

القيروان (ماى 1969)

م — ح

تتويج الحلم واخصاب اللغة

وجهان لانتصار الفكر الغربي المعاصر

بقلم : أحمد القديدي

ازمة الحضارة ام ازمة السياسة، ازمة الكنيسة ام ازمة المجتمع ؟... تساؤلات في مستوى الفكر اجاب عنها كتاب وساسة وفلاسفة عديدون ومهما يكن صنف الازمة فقد اتفق العالم على انه انتصار للخيال البشري وانفجار لقدرة الحلم عند الانسان المعاصر، بعد ان خبا لظى الضمير واوصد باب التخيل وخمدت نار التطور البشري . لقد انتصر الخيال ولكن على حساب ماذا ؟ هل انحدر الشعر في هذا العصر التكنولوجي ام شرع يستيقظ لان الإنسان المعاصر يبحث عن قيم جديدة هي بمثابة الواحة الظليلة الآمنة في صحراء الارقام والسرعة والاستهلاك، بعد ان فقد بنفسه احلام الاديان وخلع القيم السماوية عن عرشها القديم وبعد ان قال عن الشعراء انهم يعادلون حواة القرون الوسطى. نفس هذا الانسان المعاصر عاد الآن وفي ظرف جيلين او ثلاثة يطرق الابواب الموصدة آملا ان تفتح له على مصراعيها ليتأمل نقاء العواطف ويمارس بدائيته الصافية ويحول عينيه عن الاشياء الميتة والآلات الباردة بحثا عن الانتماء كما قال **جون فيلار** : ان الإنسان المعاصر يسعى لتحقيق ذاته على صعيد الكنيسة، والاحزاب السياسية، والمدارس الادبية، ليجد الايمان ومن خلاله يعبر عن حاجته وحنينه للانسانية (1) ورغم ان الفكر الغربي لم يمر بفترة عقم او غفوة في تاريخه الحديث فانه لا شك يعاني مرضا ادعوه بالغموض والتشعب (2) وهما عنصران من عناصر حياة الإنسان الغربي اذن فهما ليستا تماما ظاهرتين مرضيتين بقدر ما هما مظهران للصدق الفني، اذن نرى ان الفكر في الغرب كان معاصرا بما في هذا النعت من انتساب للحضارة الصناعية واعتراف بقيم معينة او انكارها والتزام بخدمة اهداف اجتماعية وفنية معينة لسنا الآن بصدد عرضها او نقدها بل سنحلل التيارات الاساسية التي طغت على الادب والفلسفة خلال السنوات الاخيرة لنتخلص الى نتيجة واضحة :

هي تحديد المنعرج الذى يتخطاه الفكر الغربي وتسليط الاضواء على تأثير هذا المنعرج في حياتنا الجديدة، مع محاولة تصوّر المستقبل. وربّما دفعني الى هذا العمل المتواضع ما اعتقده في الفكر الغربي من قدرة على تجاوز المفاهيم الباليّة وطاقة لبناء الحياة الروحيّة وزيادة لكلّ الحركات الفنية في العالم مهما تجوهلت ومهما انعزلت. ومن خلال اعتقادى اعبر عن ايماني بأن الحرية هي النسغ الحقيقي للتعبير والخلق والانشاء، لاّ تستقيم بدونها البشرية ولا تينع بمعزل عنها ثمار الفكر. والحرية موجودة في الغرب، لا بمعناها السياسي الضيق كما اتفق كل النقاد، بل بمفهومها السوسيولوجي والفلسفي، مما يدعم الخلق الفكري ويرسخ اقدام الفنانين والمفكرين على درب الابداع الحر ويزيد في تأثيرهم وسلطتهم ويعمق نظرة المجتمع لإعلامهم فيتكامل بذلك بناء الامم وتزدهر الحضارات ونخشى نحن من وطأة الغلبة التي ذكرها العلامة ابن خلدون كعنصر من عناصر اليتم الحضارى وضياع الشخصية والسعي وراء السراب. مما لا يقبل الريب اذن. ان هناك ازمة في الفكر الغربي ، لعلها سبب من اسباب تشعبه وغموضه مثلما ذكرنا ولكنها على كل مصدر من مصادر الاشعاع وينبوع من ينابيع البحث عن الذات وطريقة من طرق فرض انسانيّة العالم ولا ادل على حدة هذه الازمة من اعادة طبع تأمّلات الفيلسوف « **آلان** »

ALAIN وعرض مسرحيّة « شعر » HAIR في نفس السنة اذ يحس المتأمل من خلال الحدثين الادبيين ان القطيعة ثابتة بين الاجيال، وان مفاهيم الخلق الفني موضوعة موضع التساؤل الدائم والشكّ المستمر، ولعل نفس المثقف الفرنسي او الانقليزي او الالماني هو الذى يطالع حكمة «آلان» ويسهر مع مسرحية HAIR دون ان يرى في الامر غرابة او يشعر بحدة القطيعة واستحكام الانفصال مما يؤكد لنا ان الثّقافة الغربية تعطي للحرية قيمتها الكاملة وتمنحها المنصب الاول في سلّم الاخلاق وسنحاول اذن عرض اهم مقومات الأزمة الخلاقة ومقومات هذه الحيرة البناءة اللتين تسودان الفكر الغربي وتضعهما في مناخهما العالمي.

الحلم على العرش أم ازمة الخلق :

اتفق علماء الاجتماع والفلاسفة على ان الوجود المعاصر يلقي اسئلة عديدة على الإنسان وخاصة على المثقف ، ولا

تجعله هذه الاسئلة يرتاح للأجوبة الماورائية او يقبع في ظل الواحات الدينية ولا حتى الواحات الالحادية . مما يضرب حول الإنسان المعاصر حصارا منيعا ويشيد بينه وبين الظل جدارا سميكا فيضيع المرء في ما يضارع الدوران لا تكاد تثبت قدماه على ارض يابسة من يقين ، مما دفع بالمفكر الفرنسي موريس دريون Maurice Druon الى القول بأن «ازمة الجيل الجديد هي قبل كلّ شيء ازمة ميتافيزيقيّة (3) » ويعود دريون الى شرح المذهب الوجودي كينبوع من ينابيع الفكر الحائر ، المتسائل، قائلا ان الحرية التي حمّلتها الوجودية للانسان هي اكبر واقسى من ان يتحمّلها ويشبه الكاتب هذه الحرية الوجوديّة بالمعركة الحادة التي عجز الإنسان عن خوضها جُبنا او اضطرارا ، فبقى كشاهد غريب منعزل عن المعركة. ونرى ان نورد نقطة الخلاف بين دريون وسارتر في شأن حدود القدرة البشرية اذ يعتقد سارتر ان الإنسان هو المركز الحقيقي والمصب الاصلي للحياة ويرى دريون ان « الإنسان ليس خالقا للحياة انّما هو مُسَيِّرُهَا وَمُنَظِّمُهَا » وينبغي ان نذكر ان هذا العنصر الماورائي لإزمة الخاق الفكري ليس هو الوحيد بل هو اهمّ العناصر انّما يجدر بنا ان نلاحظ العناصر الاخرى والوجوه المتعددة للقضية واوّلها الوجه الإجتماعي، إذ يشعر الإنسان في المدن الكبيرة بتميّع ملامح شخصته، وذوبان ذاته، وانفراد مصيره وغربته المريرة، ثم هو يشعر من جهة اخرى بأنه محمّيٍ من طرف المجتمع يكفي ان يقوم بعمل روتيني احمق لينال بذلك ضروريات حياته اليوميّة،، وهو ايضا يحتاج الى ممارسة وجوده بعمق ولا يستطيع فيبقى على السطح ويكره حياته ضمن الاشياء والوجود التي مات فيها التعبير، ويثور على هذا الجانب المزيف من حياته ويعاوده حنين الشعر وسط عالم الارقام والآلات الباردة البليدة. ويتحرك ليصْنع ثورته هو ايضا وتكون التحركات الإجتماعية وانطلاق قوّة التعبير وممارسة البدائية في الفن والجنس من أوْضَحَ ملامح الثورة الفكريّة الحديثة وهدفها الاول هو البحث عن الهويّة الفلسفيّة للانسان الضائع.

ونعتقد انه وسط خضم المتشائمين اليائسين وخضم المتفائلين الآملين نتمكن من تحديد معالم هذه الثورة التي لامحالة ستفجر طاقات الفكر وتعطيه وجهة القرن الواحد والعشرين، لاننا مهما شككنا في الاشياء من حولنا فلا بد ان نتأكد اننا نعيش اليوم موت القيم القديمة السلبيّة وبعث القيم

الخالدة في اشكال مختلفة تتلائم مع وضع العصر. من بين المتشائمين نذكر كلمة الناقد الفرنسي اتيان لالو Etienne Lalou الذي يقول :

« انّ عصرنا لن ينتج عمالقة مثل بالزاك وستاندال وفلوبير لانّ مشعل الفكر سقط في ايدي اناس مثاليين اذكياء ولكنهم عاجزون تماما لانهم لا يقدرون الاّ على نفي الماضي والتهكم على القارىء »... « ونذكر في نفس السياق كلمة قالها لنا احد المثقفين وهو يشير الى لوحة تجريديّة متأسفاً بمرارة : « حدّق في هذه الاشكال الغريبة البدائية، انا اشك في قيمتها واخلاص رسامها عندما اتذكر انّ مود يغلياني مات جوعا في الشارع ... »

هكذا نرى ان ظلال عظماء التاريخ مازالت حيّة حاضرة في اذهان المثقفين الذين لا يرون في الفنّ الحديث سوى نقوش هيروغليفيّة غير مهذبة... فالعظماء الذين عانوا تجربتهم ومنحوا الإنسانية اجدر واصدق تراثها لا يزالون المقياس الحقيقي الخالد لكل عمل فني معاصر. وهذه النظرة صحيحة وايجابيّة الى حد كبير مع وجوب دراسة تيارات الفكر المعاصر بثبات وتفهّم وتفتح لاستكشاف جماله وفهم ابعاده والتعمق في اسراره وبواعثه واهدافه.. وربّما اشعرني قارئي انّني استعرض حضارة كاملة عوضا عن التخصص للفكر ولكنّني اعتقد ان الفكر هو خلاصة الحضارة ولذا عندما اتحدث عن الخلاصة اتجاوز حدود الادب للتحديق في شأن الامة الغربية والتأمل في امر مواقف هذه الامة ممّا تستهلكه يوميّا من غذاء روحي متنوع ومتجدّد.

هذا وقد تجلّت دولة الخيال والحلم والشعر في كل شوارع باريس خلال شهر ماي 68 حينما انفجرت الحياة الطالبيّة والعمّاليّة ووضع هذا الجيل كلّ شيء موضع الشكّ والرفض... تجلّت دولة الشعر والحلم على كل الجدران منادية بشعارات اهمها « الخيال في الحكم » و«الحلم يحكم العالم» ونرى من خلال الشعارين ان واحة الإنسان المعاصر وسط يباب القرن العشرين وارقامه وتقدّمه التكنولوجي لم تبق متمثلة في الدين وحده بل تمّ تتويج الشعر ملكا آخر على عرش الفكر والحضارة لينافس بذلك السياسة والفلسفة والدين. قالت

فتاة لندنيّة تعيش هذه الازمة لاحد الصحافيين : « اننا سنظلّ نحلم الى النهاية » « لن ننقطع بعد اليوم عن الحلم... »

هكذا يمكننا ان نضع مسرحية HAIR ضمن هذا الإطار. فبعد ان عرضت المسرحيّة في نيويورك ولندن تعرض الآن في باريس وتلاقي اقبالا هامًا من طرف الشبّان والمثقفين، تحسدها عليه مسرحيات الواجب والعقل والحكمة والحبّ لدى شكسبير وموليار وكورناي.ولا اخفي انّني ابالغ في الحديث عن هذا الاثر الادبي رغم انّي لم اشاهده ولكنّني قرأت عنه كثيراً وحدّثني عنه بعض من شاهد على مسرح لندن كما اعتبر هذه المسرحيّة ايضا تعبيرا ناطقا واضحا عن ازمة العصر. يقول الناقد المسرحي Guy Monréal عن هذه المسرحيّة : « انّ هذا العراء ليس نتيجة ارادة الاستعراض الركيك، لكنه يعني ويعبر عن الجمال والصفاء وعن انعدام الاحكام الاخلاقية المسبقة، عن رفض النظام القديم، عن عودة للينابيع ؛ إن هذا العراء رمز. »

نرى اذن ان جملة التعريفات التي سجلها الناقد تؤكد احترامه العميق للتعبير الحديث عن احاسيس النفس واختلاجاتها، كما ان الناقد يلحّ على العودة للينابيع في هذه المسرحيّة الطلائعيّة وهذه العودة نجدها في عنصرين هامّين هما :

1) حرّية الحوار البدائي اذ يتحدث الاشخاص عن الحب والمرأة والسياسة ويشتمون المجتمع وما تحيط به من مركبات مجحفة تسحق قلب الإنسان التائق للمحبة والالفة. هؤلاء الاشخاص يتألمون بمعزل عن التيارات الفلسفيّة القديمة ويريدون ان يصنعوا قدَرًا افضل للبشريّة. ويتجاوز حوارهم حدود المنطق المتعارف المألوف الى مايشبه الصيحات الجنونية التي تربط بين الافراد بمالها من قوّة وحدّة ومنطق وفوضى.

2) حريّة ممارسة العراء والجنس إذ يتعرى الرجال والنساء تحت ضوء خفيف ويحبون بدون عقد دينيّة او اخلاقية او اجتماعيّة او عنصريّة ممّا يدعو المتفرج حتما الى الشكّ والريبة في القيود التي فرضها العالم والوهم

على الحياة الجنسية فتضاءلت كرامة وحرمة العمليَّة الجنسيَّة واستحالت الى ذنب يقترفه المرء داخل اسوار سميكة من التقاليد والمعاني والتعريفات والتضييقات ممَّا اضاع جوهر الجنس وغشي معناه السامي بغبار كثيف. فلم يبق الجنس كما كان في العصر البدائي وسيلة مثلى لفرض الذات ورفض الموت وتخليد الجنس البشري واقرار العالم كما نشاؤه نقيًّا رائعا طبيعيًّا ويسيرا. ولا يخفى على احد ان البدائيَّة في الجنس والقول تقضي على الوجه المُقَنّع للحياة اليومية وتضع وجود الانسان مباشرة داخل الوجود المتكامل فتخصبُه وتفجر فيه مكامن نبوغه وانجازه.

ويستمر الناقد في عرضه للمسرحيَّة ونحس انه لا يستطيع الافلات في تأثير الثقافة الفرنسيَّة الحكيمة التي وُضِعَتْ هنا موضع النقد، فيقول في حسرة وتساؤل: « هل تجد باريس في هذا العرض المتفجر ماتبحث عنه من المنطق والنظام والتوازن التي تستجيب لتقاليدها وذوقها ؟ .» نرى هنا ايضا ان القضية توجز في ملاءمة الفكر الحديث للماضي المقدّس... وهذا من جهة اخرى مثقف تونسي وهو احمد الهرقام يكتب عن مسرحيَّة HAIR قائلا: « هي تعبّر عن اختلال التوازن في هذا الغرب الذي اصبح يعيش في دوامة مستمرة واصبح الإنسان يعيش فيه ضعيفا مريضا كئيبا في نفسه وعلاقاته، تمحوه الآلة وتسحقه مداخن المصانع في كل مكان.»

وَيَلَذّ لنا ان نساير الهرقام في تأمله الإفريقي عبرHAIRوعرائها وتعبيرها، لنجد ما يختلج بأعماق الحضارة الغربيَّة من احاسيس الجيل الحاضر ونستشف رأي مثقف من العالم الثالث، يضيف الهرقام قائلا: « لا شكّ ان هذه المسرحيَّة اتت بالجديد الى المسرح. كان الكلام فيها قليلا جدّا امام الحركات والغناء والموسيقى مع العلم ان هذه الموسيقى كانت رائعة وعميقة الاثر عند المتفرجين والغناء صافيا ملحميا نقي التعابير رقيق المعنى... لكن هذا الفن لم يبعد الحيرة عن نفسي: لماذا كلّ هذه الجرأة، لماذا كلّ هذا العرى والجنس في المسرح بعد السينما؟ قالوا: انه تعبير عن الثورة والتمرد والخروج عن كلّ التقاليد. انَّه تعبير عن مجتمع « **الهيبي** » والافيون والرفض بأنواعه « تعبيرعن

مدى سقوط الحضارة (4) » ولعلّ اكثر الآراء جرأة هو ما ذكره برتراند كاستلي مقدم المسرحية ومخرجها لاحد الصحافيين قائلا : « ان مسرحيتي تعرض الموقف الطبيعي للشباب الذين يحسون بهضم جانبهم من طرف الكهول، هؤلاء الكهول الذين يعتقدون انهم يفهمون حقيقة العالم... » (5)

انّ الحاحنا على HAIR يعود الى تجسيمها لسائر مظاهر التجديد والابداع في طرق التعبير كما انها تؤكد احتضانها لاكثر قضايا السّاعة تشعبا وسيطرة على الرأي العام ، ممّا يدفعنا الى أخذها نموذجا حيا وحديثا للثورة الفكرية التي وصفها البعض بأنّها ازمة الخلق الفني ورأى البعض الآخر انها ارتفاع بعنصري الحلم والشّعر الى مصاف القيادة الحضارية ولاحاجة لنا الى توضيح تأثير هذه الثورة الفكريّة في الحياة السياسيّة، فالصحافة تطالعنا يوميّا بانعكاسات هذه الثقافة الجديدة على الحياة الطالبيّة والعمّاليّة والحزبيّة اهمها حقن الاحزاب الشيوعيّة في العالم بدماء جديدة ومحاولة صنع الربيع في براغ ونقد الديموقراطيّة البرلمانيّة كمظهر تقليدي من مظاهر قتل الحريّات الشعبية الى آخر ذلك من انعكاسات... كما لا يخفى ايضا امتداد الثورة الفكرية الى التربيّة حيث تمت خلال سنة 1968 اصلاحات جذريّة في الحياة التربوية في اغلب بلدان العالم ترمي كلها الى فتح المؤسسات التربويّة على التيارات الإجتماعيّة من اقتصاديّة وثقافيّة وتشريك الطلبة والتلامذة في تسيير هذه المؤسسات واعداد البرامج. ومن ذلك نفهم ان طاقة الحلم والقدرة على تخيّل المستقبل وهندسة المدينة الفاضلة لم تنغلق كلّها في دائرة الوهم او الثرثرة بل تجاوزتها الى التأثير الجذري الكامل في كلّ دواليب الاقتصاد والمجتمع والثّقافة والتربية، وفي ذلك تحدّ واضح تقطعه القيم الجديدة ضدّ مومياء الاخلاق المعلّبة منذ قرون اذا ما التزمت هذه القيم الجديدة رصانة العقل الواعي واعتنقت جمال الحلم والتخيل وملأت وطابها بالامل والثقة في الإنسان.

هل نعيش مؤامرة ضدّ المنطق ام ضد الإيمان : من خلال نظرة تشريح للحضارة الغربيّة المعاصرة نلمس بسهولة عالما كاملا من اللامنطق بدأ يستشرى في الفن والحياة اليوميّة واصبح ينمو في الخلق الفني ويلقى رواجا في الاسواق. فاذا ما علمنا ان مذهب ZEN البوذي شرع يتربع على سلوك رجال الفنّ،

واذا ما علمنا انّ « بالي القرن العشرين» لموريس بيجار يستوحي اغلب رقصاته من ضمير البوذية وان فرقة البيتلز البريطانيّة اعتنقت راهبا بوذيا، ادركنا انّ الحكمة الشرقيّة القديمة وجدت سوقا رابحة في حضارة التكنولوجيا والآلة والصناعة، وعرفنا ان هذه الحكمة تمنح للمجتمع الضائع واحة باردة آمنة وسط الصحراء التي لا يُصْبِحُ فيها الإنسان سوى رقم من بين ملايين الارقام الضالة. يقول لنا عالم الفلك الامريكي Zollan Mason معلقا على احصائيّة النّاس الذين يقصدون محلاّت العرافين : « انّ حرفاء التنجيم يبحثون عن اللّه ويهربون من فوضى العالم... » رأينا اذن انّ حلم الجنّة الضائعة بدأ يفزع الانسان ذا الروح الشفافة وبدأ يرهقه ويضنيه، ونذكر ما كان يخشاه تيلار دي شاردان Teillard de Chardin حينما وصف العالم بأنّه اصبح مُجَمَّدًا كالصقيع بسبب الآلة ولاجل ذلك يتفجر اللامنطق كردّ فعل ضدّ التحجر وموت القيم الروحيّة. وهكذا راح المثقفون يحاولون تعبيد طريق جديدة تقع بين العلم والسحر تنعم فيها الروح بأمن اللامنطق الى جانب تشبث العقل بوحدانيّة المنطق ويقين المعرفة الحسية المجردة... ونجد كتابا امثال لويس بوالس Louis Pauwels وجاك برجي J. Berger يهتمان بهذه الظاهرة، ويحاولان نفي القطيعة بين المنطق واللامنطق، ولعلّ هذا العالم الذي اقرّ الحدود السلميّة بين العقل والروح قد تبلور في مدرسة مجلة « كوكب « planète » التي تجمع بين النزعة العلميّة المجردة والنزعة الروحيّة الخلاقة لاعتقادها في انسانيّة اروع لا تفقد الى جانب اكتشافها لكلّ اسرار الوجود قداسة هذا الوجود وتدرُّجَهُ نحو الاجمل والاروع. ولعلّنا نجد في فلسفة شهر ماي 68 مايدعم هذا الرأي، يقول مثلا الكاتب الفرنسي روجي كايوا R. Caillois : « يعتبر شهر ماي انفجارا لقوى سحريّة غيبيّة ليس لها صلات ملموسة بالواقع.وكأنّ كايوا يشير الىالطابع الحضاريالذي يفجررد ودالفعلوينبع من ذاتالانسان ومن توقهالدائمللراحةوفرض الذات.ويتخذ الاستاذباستيدBastide من شهر ماي الفرنسي ايضا موقفا مماثلا ويتلاءم مع ما ذكرنا في مطلع حديثنا، فيقول : « انّ شهر ماي 68 ليس ثورة، وليس كاريكاتورا للثورة، وانّما يعد شعور الشباب باستحالة الثورات، راحوا بلا وعيهم يمثلون دور الثوريين ، بفضل استحضار روح الثورة وقد شرعوا في خلق الحوار الثوري قائلين انّ

الثورة انبثقت مُردّدين نفس الحركات والشعارات، آملين ان تنهار جدران السربون او مقر الإذاعة والتلفزة بقدرة غيبيّة مجهولة... » ولا شكّ انّ رأي الاستاذ باستيد يؤكد ظاهرة اللامنطق التي تجتاح الفكر وتؤثر في كل الهياكل الحضارية، كما ان هذه الآراء تلتقي مع تصور الفيلسوف ماركيس Marcuse الذي يعتبر نبيًّا من انبياء المنطق الحديث حسب تعبير ناقد فرنسي يقول ماركيس « انّ القوى الغيبيّة اصبحت في المجتمع المعاصر تَنْبَعُ من المنطق... » ويقصد ماركيس بالمنطق هنا كلّ العلوم الحسيّة والتّقنيّة والتكنولوجيّة التي سمحت للانسان بأن يدرك وضعه الحقيقي في الإطار الكوني، وان يساهم في تقرير مصيره العام بفضل امتلاكه لطاقات العلم والمعرفة وبذلك نصل الى وقوف المثقف المعاصر موقفا فوضويًّا تجاه قضايا عصره نظرا لاكتشافه العميق لمظاهر البؤس والشر في العالم فالحرب في فيتنام والاغتيالات السياسيّة التي اصبحت قانونا يفصل النزاعات ويحسم الخلافات، وعودة الشيوعيّة الى ينابيع الستالينيّة الخانقة، وقتل الشعوب وسحقها بأكملها هنا وهناك، في بيافرا وغيرها : ممّا جعل المثقف يقف في حيرة شبه ما ورائيّة تدفعه عن وعي الى الإلحاد من الناحية الدينيّة والى الفوضى من الناحية الاجتماعية والسياسيّة وهذا الكاتب الفرنسي جون ماري دوميناك صاحب كتاب « عودة المأساة » يقول لنا « انّ منطق الشكّ لدى ماركس وفرويد وهيجل وتفكيرهم حول الوضع البشري يدفعنا الى الإلحاد... » حتى اذا ما آمن هذا الإنسان فهو معتقد في اعماقه انّه يلجأ الى الدين ليريح رأسه من دوران العصر، كهذا البطل من احدى قصص هيمنغواي الذي يقول عندما يَسْأَلُهُ احدهم هل يؤمن باللّه ؟ يقول : نعم في بعض الاحيان ليلا ، او كهذا البطل في شريط الطريق الاسطورية » للمخرج لويس بينويل L.Bunuel يقول : « انّ مَقْتِي للعالم وبغضائي للتكنولوجيا تدفعانني اخيرا الى هذا الإيمان الاحمق باللّه... » ويتساءل في زحمة هذه الافكار جاك ديكاسن J. Duquesne هل هذه فرصة للكنيسة حتّى تسترجع مكانتها وتجمع شتاتها ويستقرّ ايمانها في قلوب هؤلاء الضالين عن طريق الله » ومن شدّة استفحال القضية تحرك لنقدها حتى رجال الكنيسة انفسهم وقد عاد بعضهم الى اساليب الاديان ومدى نجاحها او اخفاقها في ضم الإنسان الضائع الى برد منابرها ومحاريبها... ويقول في هذا الصدد الاب ميكايل رامساي قس

كانتربيري « ان الدين المسيحي لم يقرأ حسابا للتحديق في الذات، ولذلك نرى الناس يبحثون عن هذا التحديق خارج الكنيسة وفي حركات غير مسيحيّة » وعبر تأملات جاك ديكاسن نجد الامل العريض، هذا الامل الذى يتعلق باهدافه المثقف الواقعي داخل الدغل الحضارى المعقد، لانه مهما طغت علينا نزعة الغموض الفكرى المعاصر لابدّ ان نصنع منها طريقا اخرى نسلكها ونجد في منتهاها رغبتنا، يقول ديكاسن: «من بحثنا المتواصل عن عالم اروع ضمن فوضى الفكر المعاصر، سيولد عهد جديد للانسان، شريطة ان لا نستسلم للدوار... فالفجر عادة يتّصف بالغموض... » ان تفاؤل ديكاسن بالعالم الاروع مَبْنِيّ على مانراه اليوم من مَخاض مبارك تعيشه كل الحركات في الادب والفن والفلسفة، فهذه المواد مهما حارت وتساءلت وشكّت ، وطغت عليها احيانا امراض التحجر والمجانية فانها بفضل تولد مدارسها وتأثيرها على الحياة والحضارة لا بدّ ان تلد انسانا كاملا يعرف ابعاد نفسه وامتداد قدرته على التاريخ بالمعنى الذى قصده فلاسفة الهيكليّة . كما ان تفاؤل ديكاسن وغيره مشاد على عزم الجيل الحاضر وطاقته الإرادية الكامنة فيه. ويكفي ان نشير الى ان الذى انتحر احتجاجا على غزو بلاده هو جان بالاش وهو طالب شابّ من تشيكوسلوفاكيا، مما يؤكد ان الجيل الجديد حريص على ان يطبق اسمى المبادىء الإنسانيّة، وان يدفع حياته فداها، هذا الجيل هو ايضا الذى يحترم التّاريخ ولكنّه لا يقف عند هذا الحدّ بل يصنع التاريخ ، ويجد أمجاده في عصره ليؤكد قوته وتأثيره، وكما قال ديكاسن عن المسيحيين المعاصرين الذين تساءل بعضهم: ما الفرق بين المسيح وشي غيفارا وقد اعطيا حياتهما من اجل سعادة الإنسان ؟... » (6)

نعتقد اذن ان الجيل المعاصر مهما قيل عنه وضدّه هو الذى سيوجه مركب الحضارة فيسعى بها الى شاطىء العدالة والحرية، وما ازمة الخُلق لديه سوى بحث عن الشاطىء وسط امواج الزيف التي تراكمت وتلاطمت، وهي من صنع الصقيع السياسي في الشرق والغرب : في الشّرق حيث استحالت الشيوعية الى بيروقراطية تقتل بذور الحرية وتخنق صوت الادب والفنّ والإبداع وتهندس مصير الإنسان بمعزل عن إرادة الانسان انطلاقا من الثورة ، وفي الغرب حيث استحالت الرأسماليّة الى دغل رهيب تتطاحن فيها قوى الامة الواحدة ويبقى البؤساء على بؤسهم وتنعدم العدالة.

ان هذا الصقيع هو الذى احدث رجة الفكر وحيرته وانفجاره بقوة هائلة فأصابت الحشاء من القيم الاخلاقية وتغلغلت في ضمائر الجيل الحاضر، وكما قال الفيلسوف ماك لوهان M. C. Luhan ان الجيل الحديث يطالب بهدف، برسالة بالتزام تام"...« فالفكر الحائر المتشعب الغامض في كثير من الاحيان هو اذن سؤال مطروح على الإنسانية وليس من مهمة الشّباب ان يجد الاجوبة، بل يكفيه فخرا ان طرح السؤال بوضوح وحدّة وصراحة قائلا : « كيف نكون متساوين في هذا العصر، كيف نجد انسانية الانسان... » ولعلّ الاجيال القادمة تهتدى الى الاجوبة، وتشيد صرح حضارة يتلاءم فيها قلب الانسان مع ضجيج الآلات، وتسمع فيها نفس الانسان خفقات الروح عبر غبار الذرّة، وتتلمس فيها يد الانسان يدا اخرى لرفيق او صديق او حبيبة، ويهتدى فيها شعور الانسان لموسيقى النظام الدائم، نظام الكون المجهول، وصمت البحار والجبال... هذه التي لا يزال المرء واقفا حيا لها لان الفكر يحتاج الى طفولة انقى واصفى وابعد عن النضج المعقد والفهم الكامل.

كيمياء جديدة للغة من اجل فكر متحرر : اصبح اهل الذكر من رجال اللغة الذين يعتقدون ان اللغة بمعزل تام عن تطور الفكر ونُمُوّ الحضارة، اصبحوا يثيرون الشفقة والضحك لسطحية بحوثهم وبعدها الساحق عن الموضوعيّة والواقع. ونحن اذ نستعرض جملة الافكار الثوريّة التي تناولت « اللغة » ك « خلاصة » للحضارة البشرية و « وسيلة » من وسائل تحديد اصولها وتثبيت اقدامها على طريق الحريّة والجدوى، ننتقد شطحات اللغويين التقليديين الذين مارسوا هواياتهم دون ان يفيدوا الفكر، ذلك لتناولهم اللّغة كمادة خام، مخلوعة عن عرش الانسان وروعة ابداعه وجمال انشائه ونقاوة احاسيسه، فساهموا بذلك في عملية « تقديس » اللّغة واعطائها طابع المعبد الذى ندخله خاشعين ولا نفكر في تغيير اشيائه او الشكّ في عناصره ومواده . ممّا جعل اللّغة تتحجر وتتجمد وتصبح قانعة بالتزاويق اللفظية والتعابير الماورائيّة، كأن يدا مجهولة انتشلتها للفضاء حيث لا وزن ولا تأثير فبقيت جسما من الاجسام الغريبة المجهولة فوق رؤوسنا، نحدق فيها بدهشة بدائية، ننعاها او ندعو لها في تبتل او نستحضر روحها او نبكيها او ننتظر المعجزة التي ستعيد للغتنا قدرتها ومعاصرتها.

ونتساءل كيف شرع الفكر الغربي يغيّر نظرته الى اللّغة ؟ ونجد ان الادب سبق المواد الاخرى في اكتشاف الرابطة المتينة بين اللّغة كقالب والحضارة كجوهر. فنرى ان بودلير، ورامبو Rimbaud ومالارمي Mallarmé ولورد بايرونLord Byronقد عبّروا عن ميوعةاللّغة la fluidité de la langue واستنبطوا ما تختزنه اللّغة من جمال ظلّ حتّى القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين مجهولا غير واضح في كلّ ماصنف من ادب خلال التاريخ. وجاء ادباء آخرون امثال بروست Proust وجامس جويس J. Joyce وت. س. اليوت T. S. Elliot وولوف V. Woolf وبيكت ويونسكو Ionesco واداموف وكافكا Kafka قد عمّموا اكتشاف اسلافهم، ومنحوا النص الادبي ابعادا جديدة ومفاهيم عميقة اخرى تضارع الى حد كبير ما اضافه الرسامون التكعيبيون والتجريديون لعالم الرسم. فقد حدّق هؤلاء الشعراء والقصاصون في اللّغة وآمنوا بضرورة اخصابها، فكان سر التزاوج الحقّ la fusion بين الكلمات وما تعبّر عنه خلجات الروح وما ترمي اليه من نبل الشعور البشري ومواقف الانسان تجاه العالم والتاريخ والمصير. ولذلك نرى انّ فقهاء اللّغة الغربيين اتجهوا وجهة البحث الاكاديمي الرصين، حتى اجبروا كلّ فيلسوف على اخذ موقف معين من القضيّة اللّغويّة لخطورتها واتصالها بالعصر. ويكفي ان نشير الى مواقف الوجوديّة والهيكليّة والظاهريّة من اللّغة وعناصر بنائها، ممّا يدعم فلسفة اللّغة كأساس من اسس تطوير الفكر ونذكر في هذا السياق جملة نقد لحضارة الفكر قام بها المفكّر الفرنسي ميكال ديفرانMikel Dufrenneفي كتابه (7)قائلا:

« انّنا نعيش احتضار عالم الفكرة... » وهذا يعني حتما ان العالم الحديث لم يعد يعتمد اساسا على الفكرة la pensée وانّما على اللّغة الفكرة او التعبير الفكري او كما لخّص الاستاذ البشير بن سلامة هذه القضيّة في كلمتين هما « اللّغة التجاوز » ممّا يبشرنا بانعكاس هذه الازمة الخلاقة على الفكر التونسي ويجعلنا نأمل انطلاقة حكيمة لادبنا عن طريق « تجاوز » القيم القديمة واكتشاف الابعاد الجديدة للّغة لندرك اسمى الحقائق واعمقها وابلغ المعاني واجلها واكثرها تفتحا واصالة معا.

هذا وتجدر الإشارة الى صنفين من الدراسة اللغويّة شملت كل معطيات القضية، وهي :

— اللّغة كخلاصة للحضارة : اهمّ من يمثل هذا الإتجاه في الدرس والتنقيب هو المفكر الفرنسي بريس باران Brice Parin الذي يلقبه بعض النقّاد بسقراط جديد، من حيث تناوله الحكيم لسائر وجوه الازمة اللّغويّة بطريقة واضحة تنفي التفسير المنطقي. وقد نبع تفكير باران من ابعاد اللّغة ومدى قدرتها على الإبلاغ Communicabilité ممّا جعل كتابه (8) اقرب الى الخواطر اليسيرة منه الى التحقيق العلمي الجافّ. يقول باران : « آلتي الوحيدة هي اللّغة ومنطقي الوحيد هو الحياة، والجسر غامض بين ما نقوله وما نحياه بصدق... » رأينا اذن ان هذه المعادلة التي تربط بين قول الإنسان وحياته معادلة يشوبها الغموض والمغالطة، فالانسان هو عالم غامض معقد حسب اكتشافات فرويد، ولذا يتساءل باران عن مدى صدق اللّغة والقول في الافصاح عن ذات وكيان هذا الانسان بتزاويق متعارفة مستعملة، توارثتها الاجيال دون اختيار او موقف، فأصبحت عاجزة عن بلوغ العمق المطلوب منها. ومن خلال شعار بريس باران القائل : « لغة حقيقيّة لإنسان حقيقي (9) » نتبين طريقته السقراطيّة في البحث عن الحقيقة من خلال الموازاة بين اللّغة والإنسان. وقد شعر بعجز اللّغةنقّادآخرون اتجهوا وجهة باران، من بينهم اندري دالماس André Dalmas الذي يؤكد : « المهمّ الآن ليس ان نفسر، بل ان نوجد اساسا لعالم الكلمة الذي نتخبط فيه... » او جورج مونان G. Mounin الذي ينشد انفصال علم اللّغة عن فلسفة اللّغة لاثراء العلاقةبين ما نقول وما نفعل ولارساء قواعد علم تشريح اللّغة من اجل اعادة بنائها. وربّما كانت النتيجة التي وصل اليها بريس بران تلخص محبته الفائقة للفكر السقراطي الذي يمثل اسمى مظهر من مظاهر البحث الدائم والوضوح الدائم. وربّما كانت هذه النتيجة تأكيدا آخر على هدف الدراسة اللّغويّة المتمثل في صنع الحوار القادر على الإبلاغ، وتتلخص نتيجة بحث بريس باران فيما قاله عنه ناقده دالماس : « انّ منتهى الحكمة هو ان يصبح التخاطب عنصرا من عناصر سعادة الانسان... » ولعلّه في

هذه الغاية النبيلة اسمى ما تتطلع له البشرية منذ احقاب بعيدة، ولا نشك في ان الحوار السليم الصادق بين البشر هو مما يثري الاخوة الإنسانية ويجعلها تتجاوز على صعيد الفن والخلق الادبي لكي تتزحزح الحدود عن عرشها المكين ويستيقظ العالم على نواقيس النصر والتفاهم والمحبة.

الدراسة التجريبية للغة : يمثل البحاثون الهيكليون صف الريادة في الدراسة التجريبية وفي مقدمتهم سوسير Saussure ولكن منذ صدور كتاب الفكر الالماني هلموت هيسنبوتل Helmut Heissenbüttel بدأت تتضح ملامح الطريقة التجريبية التي تنشد بعث اللغة حسب كيمياء جديدة، اثر تفكك عباراتها وكلماتها واعادة وصفها بطريقة « التركيب »
ولا شك ان مغامرة هيسنبوتل رغم شدة ايغالها في عالم الكلمة المنعزل، ورغم قسوة جرأتها، قد افادت جيل الكتاب المعاصرين من حيث استعمال اللغة كمادة خام matériaux brut بطريقة تمكن من استغلال كل طاقات اللاوعي والحلم والشعر في نفس الانسان المبدع بأسلوب طريف.

وتتجلى روعة الطريقة التجريبية ايضا في إيمان اقطابها بتشريك القارىء في عملية الخلق، لا من ناحية تخيل الحوادث او استنباط المغزى او حتى اتخاذ الموقف السياسي، بل من ناحية اضافة كلمات اخرى لم توجد في النص الاصلي حسب تفكير ووضع القارىء حيث يعتقد هيسنبوتل ورفاقه اعتقادا راسخا ان القارىء ليس مجرد مستهلك بل هو انسان واع متحرر يجب رفعه الى مستوى التجربة والانفجار اللغوي ومن ورائه « عملية التخاطب الواضح »

يقول هيسنبوتل في استجواب قامت به مجلة La quinzaine littéraire « يجب على القارىء ان يغذي النص بالخيال كما افعل انا تماما، انا لا يمكن ان اقوم بأي تأثير فردي عليه، فالنص لدي هو مجموعة هياكل مفتوحة » كما استعرض المفكر الالماني في هذا الاستجواب طريقة استغلاله للأمثلة والاقوال الشعبية، مؤكدا انها تحمل مضمونا سياسيا خالدا اذا ما رصفت بأسلوب الإلصاق Collage او التوزيع Distribution او اعادة البناء Reconstruction فكل هذه الاساليب جديدة نوعا ما نيعت

كما ذكرنا في العالم الادبي نثرا وشعرا، ولكنها الآن في طريقها الى فتح آفاق جديدة ونجد انعكاساتها في عدد من الاعمال الادبية امثال « العام الفارط بمارينباد » و « الرجل الذي يكذب » لروب غريبي A. Robbe Grillet و « اغادير » لمحمد خير الدين المغربي (بالفرنسية) و « الغياب » لجورج بيريك G. Perec و « خرافات » لعزالدين المدني ، ومجموعة اخرى هامة من القصص والروايات المعاصرة التي عبرت بحق عن ازمة اللغة وحاولت عبور جسر المنطق لتبلغ عالم الحقيقة في نفس الانسان وشعوره واحلامه، لانها تضع القارىء مباشرة في دنيا اللاوعي وتقدم له الاحداث من الداخل مثلما يحسها صاحبها الذي يحياها. مما يؤكد حتما قوة هذا الادب ومتانته لانه اعتبر اللغة عنصرا حضاريا يجب تطويره بشتى الوسائل والمغامرات لتتكامل تجربة الخلق والإنشاء والإبلاغ وتستيقظ على فجر انقى واجمل.

الادب هو الدفاع عن الانسان : راينا من خلال هذه اللمحة الوجيزة مايعيشه الفكر الغربي من مخاض مقدس، لعله غسق فيه ضياع وبحث عن الذات ولكنه غسق يبشر بميلاد فجر الادب، الادب الذي يرتاح له قلب الإنسان في عصر تغيير القيم وعصر المؤامرات ضد دولة العقل. ولكن المتأمل في هذا الغسق لا يملك الا ان يصفق مرحا وابتهاجا لعودة الحلم على عرشه القديم، وعودة الادب لسابق عنفوانه وشبابه. ونذكر اخيرا كلمسة ريشة في هذه اللوحة المتواضعة ما قاله الفيلسوف الوجودي غابريال مارسال في حفل عيد ميلاده الثمانين وهو يجيب عن كلمات المحتفلين به قائلا : « ان رسالة الفكر الخالدة هي الدفاع عن الإنسان... » كما نذكر رمزا آخر من رموز هذا العصر الذي بدأت تتضح فيه انسانية عميقة راسخة ومؤمنة بنفسها وبمصير العالم الافضل رغم كل ما تلقاه من معاناة، هذا الرمز يتمثل في عرض قدمه مثقف شاب من تونس هو احمد الهرقام عن شريط « كلكوتا » الذي يصور مأساة شعب يتألم ويثور. قال الهرقام في مرارة : « ورغم ذلك سمعت احد الشبان ينادي العاملة بالقاعة في فترة الاستراحة ويسألها دون ان ترف له عين : « اليس لديكم مبردات الاسكيمو... » كان وجهه انوثيا منفرا جعلني اتمنى في لحظة ان اصفعه واطرده من القاعة... »

نلاحظ اذن ان تأثير الفكر الصادق هو تأثير خالد ،لا يزال رغم ما قيل يلهب الاحاسيس ويهذبها ويرققها، ولا يزال مُشعًّا كالمنارة يهدى بضوئه النفوس الافاقة المتعبة. وبذلك نعتقد ان من ينعون الادب وينذرون باحتضار الفكر ماهُمْ الاّ حلقة من حلقات الدراويش في الشرق والامة العربية. ولا اظنّ بعد هذه القضايا التي تثار في العالم انّنا نستطيع ان نعالج ادبنا التونسي بمعزل عنها ، ونكتفي في نقدنا اياّه بالمفاهيم الدينيّة الضيقة والسلم الاخلاقي المسوس والتصانيف النقديّة المُعَلّبَة. ممّا يُضَيِّعُ جوهر الفكر ويدنس قداسته ويذهب منه باللب والحرمة فلنفتح نافذة الحضارة لتهبّ علينا الريح من كلّ جانب حتّى نجد اصالتنا .

احمد القديـــدي

26 ماي 1969

مـراجـــع :

(1) Jean Vilar (de la Tradition Théâtrale) idées
(2) l'incohérence et la confusion
(3) l'avenir en désarroi (M. Druon)
(4) مجلة الشعب (أفريل 69)
(5) L'EXPRESS N° 930 P 61
(6) L'EXPRESS N° 927 P 32
(7) Pour l'Homme. Mikel Dufrenne (ed. Seuil)
(8) la petite métaphysique de la parole. B. Parain
(9) un langage vrai pour un homme vrai »
(10) la quinzaine littéraire N° 72

في غير الشعر العمودي والحر (*)

اتذكر

شعر : فضيلة الشابي

أتَذَكَّرْ
حينما صَنَعْتَ لِي كرسِيًّا
قُرْبَ الشَّمسْ
كُنَّا نَضحكْ
لانَّنا نَسِينَا أن نَحْملَ مَعَنَا حَطَبَ الارض
صَنَعْتَهُ مِنْ ألوانٍ غَريبهْ
وأشياءَ غَريبَهْ
وأخذْتَ ... في دَوْرَةِ الكَواكبِ
تُحَدِّثُنِي عن حَقِيقَتِي ...

أتَذكَّرْ ...
حينما كنَّا نَجذبُ الموتَ من ردائه
وَنَختَفِي وراءَ الشَّمْسْ
أتذكَّرْ ... أتذَكَّرْ ...
حينَ قدَّمْتَ لِي قَوْسَ قُزحٍ
أرجوحةَ سَمائِيهْ
وَطَرَدْتَ الخَوْفَ كذُبابَةٍ
من مقلة البشرية

* * *

أتذَكَّرْ ...
حين انفَجَرَ العَالَمْ

(*) العبارة من وضع المجلة .

كَـزَهْـرَهْ ...
انفجَـارُهُ كَـانَ رَائعـاً ...

رَائعـاً ...
رَائِعـاً ...

أتَـذكّـرْ ...
حينَ أرَدْتَ أن تَمْنَحَني انفِجَارَ العَـالَـمْ
هَـذِهِ الـزَهـرهْ ...

فضيلـة الشابي

1969/3/15

إصلاح أخطاء مطبعية في ديوان « رحلة في العبير »
للشاعر نور الدين صمود

وقعت أخطاء مطبعية طفيفة في الديوان المذكور وصحبه يرجو قُـرّاءه الكرام إصلاح تلك الأخطاء على الصّورة التّالية قبل قراءته

ص 7 س 4 = (كلنا يدفعه ملء رضاه)
ص 20 س 4 = (خلف زاد الغد يا طول العناءْ)
ص 31 س 16 = (وابتسامـات الصبـاح)
ص 61 = « ينقل عنوان القصيدة إلى صفحة 116 والعكس ، كما جـاء في فهرسِ الديوان » .
ص 63 س 4 = الاشَمّ « بفتح الشين »
ص 69 = تاريخ القصيدة سنة 1965 لا سنة 1955 .
ص 92 س 3 = (برفرفة النور في مقلتيك)
ص 137 س 1 = (بي نزوع إلى البكاء غريب ...)
ص 150 س 16 = وص 155 — 157 س 12 (رويدَك) بفتح الدال .)
ص 153 س 5 = (رأتْ مجدَ « رُومَا » على ثغره ...

كلمات منثورة

بقلم : البشير المجذوب

• بعض التواضع عُجب .

• لا تخادع نفسك ؛ إنها أفهَم عنك منك .

• أن تُسلِّم باللامعقول الاكبر : الله ! وتَقَرّ نفسك بذلك وترضى. تلك أكبر الحكمة . تلك أكبر الشجاعة .

• تبا للشيخوخة (بل قُلْ حتّى الكهولة) تحرم الفنان من نضارة المرأة وهو أرفع ما يكون حساسيّة وأرق ما يكون نفسا !

• الفن والمرأة ضرّتان قد يجمع الفنّان بينهما في بيت واحد ولكنّه لا يعدل – بحال – بينهما .

• الصّلاة جسر إلى الربّ . محاولة قصوى للحاق به والاصطدام بلغزه.

• لا سعادة ، مُطلقا ، إلا مع الخلق ، مهما تكن صوره ، ولو كان صفحة موفَّقة أو حذاء بسيطا أو ملعقة تافهة .

• للأدب أبواب عديدة فأنت الاديب الاديب وإن ولجت من أيسرها

البشير المجذوب

دمعة على جبين الارض

قصة ، بقلم : إبراهيم بن مراد

- 1 -

الفاصلة الاولى

التواء الرجل على الرمل كالتوائها تحت حبل المشنقة اذ تغوص فى الماء . وتدحرج الموجة من أعلى القمر الى أسفل البحر كحلم الحوتة ذات السيف بأن نقلب السفينة ، وقد استقر فى جوفها يونس . ذرة الرمل جبل وقطرة الماء نهر ، والمطر ينقط على آثار رمادك ؛ والشيات الصغير مقع على صندوقه والذباب معشش على عينيه ، يسألك سؤال الملكين وهو يمتص مخاطه ، وقد اختفت من عالمك عيناها ... وجهك تنوة قهوة فى قاع فنجانك ووجه العالم وجه القمر حجرى ووقع الاقدام العائدة لاهثة كدبيب البرائن فى ليلة ممطرة وكل شيء لا شيء ... جثة العالم المتدنية فى حبل المشنقة كالبراق المتدحرج وقد نطح سدرة المنتهى فى سورة غضب عندما قال لك الطبيب قد أصابتك حمى لأنه لا يرى الجيوش المتطاحنة حولى . عينا جمهروش ضيقتان كحدقة إبرة وأنا الجمل يريد المروق منها ! ليست غباوتى بأصغر من غباوة العالم الذى يريد قهر جمهروش ، أما عمرك فدخان سيجارتك أسود يتبدد ، ومتى عرف جمهروش قدره ؟

أما اليد القابضة على الحديد فصماء كعينى هابيل وقد اختفت منهما الحياة . أما عينا الجاثمة على صدرك فتنضح منهما الجريمة ، ويفوح من يدها القابضة على الكأس الذهبى دم لا تخفيه الابتسامة الماكرة على ثغرك أيتها الحياة ! فمتى يخفت جمهروش أنفاسك ؟ نعيبك يصطك صداه فى خرائب نفسى ، بومة فى آخر الليل ! رأيتها يا أمى منذ شهر . إنها هى التى تراءت لى فى نومى . عيناى غائرتان فى هوتين سحيقتين وكتلة من الصوف المسود على رأسها المستدير كمنصبة برمتنا . فمها ثغرة سوداء يتوسط وجها قرديا قد ركب عند الصدغين أذنين كبيرتين كعروتى عديلتنا . اما يدها ففارغة شلاء قابضة على الحديد الاملس ، كجبينها المجعد قد نامت فى أعماق غضونه أحلام الاجيال الماضية . فغرت ثغرتها المسودة لتقول لى إنك تخدم درجة البصل هذه وسوف لن تأكل ثمرتها !

يا للسخرية ! كان موسى عارجا الى الجبل عندما وجد رجلا فى الخلاء ملقى على ظهره ، يداه ورجلاه فى الوحل ولا ما يستره إلا حفنة من التراب على عورته ؛ فطلب من موسى ان يستغفر له لدى ربه كى يخفف عليه العقاب . ولما مر به عائدا أعلمه بأن الله يريد منه أن يحمده . فغضب وقال علام أحمده ؟ فهبت نسمة خفيفة أطارت حفنة التراب ! ألم تعرفوا نوايا شيخ حومتنا بعد ؟ سمعت عن البغى التى تزوجها بعدما أنذرتنى ، أنها أصبحت سيدة الحومة . فهل عرفت عذوبة الزيف والتضليل يا نسائم الليل ؟ كوجه صبية عليه ندوب وبثور! وأنتم أيها النائمون تحت الارض ما هو مصير عظامكم ؟ الارض ! ؟ الارض الملتوية بين منعطفات الجبل كالارض الملتوية تحت المسحاة كالرجل الملتوية على الرمل والرجل السائخة فى طين السبخة الاسود واليد الشلاء قابضة على الحديد ، حديد المسحاة . والمنجل فى التواء متحشرج وإمساك محتضر كأنين المسحاة فى أعماق الارض واحتضار الحشيش تحت أسنان المحشة والصرخة المكتومة فى أعماقى وقد أصابنى شهاب من يد جمهروش والمسحاة تتدحرج فى يدى مبللة بالماء والطين اللذين تغوص فيهما رجلاى والقبر فاغر فاه يا أمى ؛ فمتى يخفض الله لنا جناح الذل من الرحمة ؟... فى فضاء الدار أقمار سود وقد قال جدى قديما إن تحت أرض غابتنا كنزا ، لولاه لما خذلوك يا عيسى ! الخيانة ! يقتتل جمهروش وقهرمان على كنز تحت أرض غابتنا . جمهروش يمتلك كنوز الارض ، ولكنك طمعت فى كنز صغير تحت أرض غابتنا ، يا ملك الجن ! فمتى تحتضن الارض عظام جمهروش ؟ أرض غابتنا تنتج البصل ، وتحتها كنز يطمع فى امتلاكه جمهروش الجبار ، وأنتم قانعون بمصيركم أيها الجرذان ، فمتى نمتلك ألا نسألكم أيها النائمون تحت الارض عن مصير عظامكم ؟

كالنقط الشهباء على جلد عنزتنا الاجرب دموعكن . والذبان الاخضر الحائم حولى كدموعكن ، ينذر بالنهاية . كقمر صدىء تلفه عتمة الظلام خلف عينى المغمضتين ، يتراءى لى ذلك الطائر الاخضر الذى يصك منقاره قصة الدار ، فدعوه يدخل . ثيرة اربعطاش فى رأسى قائمة . لمن تتركنا يا بنى ؟ أفى عز الشباب تأخذه يا ربى ؟ من قبله دفنا صالحا وابنه . أيكون محمد أملنا المقطوف أيضا ؟ محمد ! ولدى ! ! ... أمى ! أخواتى ! قال أخى صالح موصيا لى ، فى المنام ، ردوا بالكم من الربيب النابت فى حاشية السانية ، فكان ابنه أعز عليكن من أنفسكن . ولم أترك ربيبا فى حاشية الساقية ، فأوصيكن برعاية الدقلايتين الجبارتين فى بطحاء الغابة ، فلولاهما ما كنا . أبوكن متهدم وأمكن عجوز عمياء ، فبهما خيرا . صرخة أخى صالح فى قاع البئر لم يستجب لها . قد حطمت صرخته مزمار داوود وهذان طبل وزكرة يشنجان أعصابك بعد أن

انتظرا طويلا ليالى عرسك • وليس من لى بعدكم ، وسيمتص موتى صفاء عينيها ، فلا تحزنى بعدى أيتها الغالية • ستطرد عيناك عنى صورة الشيات الصغير المقعى على صندوقه الصغير والذباب معشش على عينيه ، وهو يسألنى سؤال الملكين ، وستخفف عيناك وقع البراثن فى الليلة الممطرة وكل شىء لا شىء ••• إنهم آتون • قد أقتربوا الآن فى العطفة المؤدية الى المنزل أمام حانوت خالى السويح • جمهروش وقهرمان وشيخ الحومة • تنتظرهم أجنادهم فى بطحاء المنزل • أسنان المنجل تقزقز أمعائى • فم المسحاة يهوى على رأسى • قد اكتسى جمهروش وقهرمان وشيخ الحومة رؤوس بصل • بصلى قد سرقوه • لقد تعبت فى خدمة الدرجة ليالى الشتاء • ما هو ذا البصل يدمع عينى ! ما أمر رائحة البصل فى حلقى ! ما احد اسنان المحشة وهى تحش مصارينى ! إعععه ! إعععه ! آه ! عروق البصل • إنها تمتد الى اعماقى • تلتوى على رجلى ثعابين ، أهذه خدمة يدى تنتج الثعابين فتلتوى على يدى ورجلى وتنهش أعماقى ؟ أنم تغص رجلاى فى طين الدرجة وأنا أخدمها ؟ ألم تغص رجلاى فى ماء الدرجة وأنا أسقيها ؟ ولكن صرختى كصرخة أخى صالح فى قاع البئر ، تضيع فى صدى هذا التصفيق والتهليل فى بطحاء المنزل ، فقد وصل جمهروش وصاحباه • وصل الملاعين • أخلوا لهم باب الدار • إن الملعون يقبض على الطائر الاخضر فيمرسه بين أصابعه الخشبية • لاصرخن فى وجوههم • ارغربوا يا وجوه النحس ! هذا أنت يا جمهروش • إنى أعرف وجهك النحاسى ! أتعتقد أنى لم أعلم بغدركم بى ؟ لماذا تنظر الى هكذا كمعزتنا عندما يعلوها التيس ؟ إنى لأذكر جيدا ليلة كنت أسقى درجة البصل عندما غزت الغابة أمواج الظلام فغطت القمر حولى ، وأصوات مفرقعة تتقدمها • وبعينى هاتين رأيت كائنات لها رؤوس بشرية تحمل قرون ماعز لا أعرف أين كانت أيديها مختفية • كانت وجوهها بلا عيون ، أو لعلها كانت وراءها • أما الأفخاذ والارجل فكانت أفخاذ وارجل ماعز ، مسلوخة ، كجلد أبرص • هى جندك وجند قهرمان بلا شك • سمعت أصواتا لم أتميز منها إلا إسمى قهرمان وجمهروش • ولم أتمكن من الهرب إذ أحاط بى وابل الشهب • وأصبت فى القلب ! أتعتقدون أنه لا يوجد من يهتك سركم ؟ ! مقدم الحزب القادرى هو الذى أتى الى الغابة ليلا وحملنى ، وقال ان محلتين من محلات الجن كانتا تتقاتلان فى الغابة على أيهما تأخذ الكنز المدفون فى هذه الغابة • هما أنتما متصالحان ، وها أنا المصاب ينذرنى الذبان الاخضر بالقبر ! ما الذى فعلته لكما ؟ سادة الدنيا يعبثون بحقارتها ! ما أبشع هذا ! ما أجمل رؤوس البصل النابتة على أجسامكم النحاسية ! فهل عرفت مرارة التضليل والمخادعة والنفاق بالفحات الهجير ؟ هى كوجه هؤلاء الملاعين ••• هئآه ! هئآه ! طعنتنى يا جمهروش مرة أخرى ! طعننى يا ••• أمى •

ـ 2 ـ

الفاصلة الثانية

اللا شىء كأى شىء · وقد أغمض العياط آذان السحاب وسد عيون الحوت فى البحر ·

قال الحوت للبحر غاضبا : أريد أن التهمك ·

البحر : ···

الحوت : أيها العجوز ! سترى كيف يغمزك ذيلى ! .

البحر : ···

اللا شىء كأى شىء · ووقع الاقدام العائدة لاهثة كوقع الحوافر فى يوم صيفى قائظ وقد غاصت أعين الحمير وسنامات الابل فى أوحال شاطىء الجريد، وكتنوة القهوة فى قاع فنجانه كأن وجهه · من عالمه عيناها قد اختفتا · وهو يمتص مخاطه ، مائية النخيل ، يسأله سؤال الملكين والذبان الاخضر معشش على عينيه ، مقع على صندوقه ، ذلك الشيات الصغير · على آثار رماده قد نقط المطر · نهر ، قطرة المطر · جبل ، ذرة الرمل · اللاشيئية تنخر العالم وقد امتصت الشمس أنفاسك أيها البحر ! أنفاسك أيها الجبار دموع على جبين الارض · دموعك تحملك فى أعماقها ، وتذوب على جبين الارض بهتا · فأى مرارة تشرب الارض ! وقد بهتت زرقة البحر · وقد خفت حدة الشمس · فمتى يعرف السحاب غبطة الانعتاق ؟ وقيل إن ماء البحر أوشك ان ينفد ، وإن الكلب فى أعماق الناس قد مات ، فمتى يتحطم ذيل الحوت الغامز ، وتشل أصابع الاخطبوط ؟ ولكن ··· التواء الرجل على الرمل كالتوائها تحت حبل المشنقة إذ تغوص فى الماء · وتدحرج الموجة من أعلى القمر الى أسفل البحر كحلم الحوتة ذات السيف بأن تقلب السفينة وقد استقر فى جوفها يونس !

إ· م·

في غير الشعر العمودي والحر

مذكرات على السرير الابيض

شعر : الطاهر الهمامي

1 ـ اختنـــاق

الليـل هنـــا اغتـرابْ
أغنيـــات حـزينـه
وعيـون هـدّهــا انتظار فجـر خـــادع كـذّابْ
اللّيــل هنـــا حبـــال مـن طيـن
تمتـــدّ ،
واسفلْـت بـــارد حـــزينْ
وأشعـــار تمـــوتْ

لـو عـرفـتِ كيف تمـوتُ الاشعـارْ !
كيف تُنفى
تضـيـعْ
تضيعُ فِيِ قعــر مستشفى
وتضحي أنفـه مـن حـذاء بغى
وأوهـى مـن سرب حُـــوتْ
حيـن جفّ المـّــاء
لـو عـرفـت كيف تمـوتْ !

1969 — 8 — 12

2 ـ جـــوع

فـي الجهـة الشّـرقيّـة
قطـة رمـــاديّـه
رمـــاديّـة كلـون أيّـــامي

داهمهَا المساء
تتمرّغُ في الارضْ
تموءُ مُواء
« أقولُ وقد ماتتْ بقربيَ قطّة ... »
وينزل الليلْ
ينزل الليْلْ
حبالا حديديّه

في الجبْهة الشرقيّه
تفاقمَ الاسَى

1969 — 8 — 27

3 — إفراج

الفجرُ في الابوابْ
يدقُ الفجرْ
يدقّ بقوّه
يتسلّلُ عبْر مشانق الظلْمه
يبحث عن كُوّه
يعيد الطرق مرّارْ
يرجّ الهُوّه
الفجْرُ في الاعتابْ
يتكدّس ضوءا وأزهارْ
يا آخرَ الليلْ
يا آخرَ الليلْ !

1969 — 8 — 22

4 — من مذكرة صاخبة

أخشى أن تموت أشعاري الّتى خرجتْ عن العُرْف
أن تقفَ أمام العداله

فى يوم ٍ غير ذى شمسْ
وعدالةُ الحَرفْ
كانتْ لدينا من القِدَم
جبهةَ عنف ودَم
تُدين اليومَ بالأمسْ ...

يا لُغَةَ الفاتحينَ ويا نشيد العصورِ المُقبله
مازلتُ في أسْوَاري
وأيّامي مازالتْ
وأفكاري
للّنفى موهونه
يا أناشيد غيرَ « موزونَه »
أخافُ أخافُ
ويكبرُ الخوفْ
على كُلِّ نخلْته
وكُل زيتونه

1969 – 8 – 23

ط. ه.

سوسة – مستشفى فرحات حشاد

الحجرة المظلمة

قصة ـ بقلم : محمد باردي

كان أبي مؤمنا ، كان يحلو له أن يقبر بنفسه ابناءه عندما يتوفاهم الاجل ، وأصبحت عادة من عاداته ، لا يستطيع أن يتخلى عنها . فكلما انجب طفلا علم أنه سيحفر له قبرا بنفسه بعد شهر أو سنة أو سنتين ، فيذهب إلى الفأس والمسحاة فيجعلهما في مكان أمين حتى يعثر عليهما كلما حان الاوان نفس الفأس والمسحاة اللتين عرفتهما منذ كنت صغيرا . ورغم ذلك كان أبي مؤمنا ... كان مؤمنا .

الرياح والليل وأنا وحجرة ضيقة ... كنت في الفراش ، وكانت الحجرة مظلمة وكنت أريد أن أنام ، كنت أريد الفرار ، أريد أن أهرب من هواجسي ، أهرب من يقظتي ... يقظتي تعذبني هذه الليلة الوجود يعذبني ... وفجأة شعرت أن الباب ينفرج ، فتدخل قامة طويلة سوداء ، ذابلة ، وفتحت عيني في الظلام وعرفته ، عرفته رغم أنني لم أره . واستلقى فوق الفراش الملقى في الركن الآخر من الحجرة ، عرفته ، كان أبي ، وفهمت أنه ينتظر ، وحاولت أن أنام ، أغمضت عيني ، جذبت أطراف الغطاء ولكن أبي سوف لن ينام هذه الليلة ، كان السرير يزأر تحت قامته الطويلة ... كان يتحرك ، يتقلب ، يريد أن ينام ولكن سوف لن ينام هذه الليلة وكدت أقول له « انتظر يا أبي ... هذه ليلتك »

كان الظلام دامسا ، ولكن رغم ذلك كان أليفا . كم كنت أحب الظلام ... ظللنا صامتين . لم يرد أحدنا أن يقطع صمتنا . فقد كانت تجول في خواطرنا نفس المشاعر . نفس المخاوف ونفس الاضطرابات ، ولأول مرة في حياتي أحسست أنني قريب من أبي ، أحسست أنني افكر فيما يفكر أبي . أحسست أن المترين

اللّذين يفصلان بيني وبين أبي اكثر من مترين . وشعرت أنّني في مسيس الحاجة إلى مخاطبة أبي ، ولكن حاجته إلى محادثتي كانت اكبر فقطع صمتنا الثقيل هامسا كأنّه لا يريد أن يوقظني : « أأنت نائم » ولكنني لم أجد ما أجيب به ، وبعد لحظات كانت ثقيلة باردة على أبي « لا يا أبي » ثم أردفت بصوت يكاد لا يسمع كأنّني أحدّث نفسي « انّني انتظر » انني انتظر يا أبي » وأخذت أتقلّب فوق الفراش الذي تبيّن لي أنّه يضيق بي هذه اللّيلة . يكاد يخنقني ، وجذبت أطراف الغطاء من جديد وتململت ثمّ عاودنا الصّمت الثّقيل . فامنت أن الصّمت أعظم وأنبل تعبير ، وصمتّ وصمت أبي ... وأخذت الافكار تتلاعب في خاطري ، وأخذت الخيالات تتراقص من مخيّلتي . خيالات عنيفة رهيبة ، كنت أريد أن أنام ، أريد أن أهرب وأدخلت رأسي تحت الوسادة وجذبت أطراف الغطاء . ووضعت أصابعي في أذني أريد أن لا أسمع شيئا ... ارحمني يا الآهي ... ولكن إلآهي لا يريد أن يدنو منا هذه اللّيلة كان بعيدا ... وشعرت لاوّل مرّة في حياتي أن الله يبتعد عنّي . أنّه يتجاهلني . أنّه يتركني في الظلام الدامس وصرخت « أين أنت ياإلآهي ... أين أنت يا إلآهي ، إلآهي كان بعيدا ... وشعرت بيد والدي تتسلل بين طيات الغطاء ثمّ تمر بكل رفق فوق جبيني الّذي تندّى عرقا « مالك يا بني » « لاشيء يا أبي » ثمّ أحسست أن أصابعه تنزاح برفق عن جبيني . ثمّ تجذب الغطاء في هدوء إلى رأسي ، وسمعته يهمس في أذني وهو يعود إلى فراشه « نم يا بني ... يفرّجها الله » وكدت أصرخ في وجهه « الله لا يعرف دارنا يا أبي ... الله لا يعرفنا يا أبي ... الله يعرف الاغنياء ... الله في بطون الاغنياء ... وعاد صوته حزينا يهمس إلى « حاول أن تنام يا بني » وحاولت أن أنام وأحسست أن اعصابي تتراخى وجفنيّ يتثاقلان . وأحسست أن النوم يدب متثاقلا ولم أدر هل نمت أم لا . هل داعب النوم جفني ، ولكن لابد أن تكون مجرّد اغفاءة ، مجرّد مداعبة خفيفة وسرعان ما أفقت مذعورا ، كنت أرتعش ارتعاشا . كانت اسناني تصطك اصطكاكا مذهلا وجاءني صوت أبي مرتعشا كذلك ... أأفقت يا بني » فتيقنت أنّه كان خائفا مثلي ... كان خائفا ... خائفا . وأخرجت رأسي فتبينت قامة أبي ... كان واقفا وراء الباب . وعندما أحسست أنّه بجانبي ،

أنّـه قريب منّي ... كـان صراخ أمّي يـدخل إلينـا من الحجـرة المجـاورة لحجرتي ، يصم آذاننـا فـارتعشنـا لـه . كـان أبي قريبـا منّي ... كـان جـالسا على حافة السريـر ... وكـانت أصابعه المرتعشة تمـر فوق جبيني ... كـان يجمعنـا حب واحد ، حبّ كبيـر ، كـانت تجمعنـا امرأة واحدة ، أوّل امـرأة أحببتهـا في حيـاتي ، وشعـرت أن أبي يحبّني . كانت أصابعه تتحسس جبين أمّي ، تتخلل شعرهـا وكدت أصرخ ... أبعد أصابعك عنّي ... انّني ابنك . أنت لا تحبّني ... أنت لا تحبني ... ولـكن تركته يمسح جبيني . كـان الظـلام الدامس يحوينـا . فكنت لا اراه . لعلـه كـان يبكـي في تلك اللّحظة ولـكنّه غـالب نفسه فحـاول أن يبدّد الصّمت الاسود مـوجهـا حديثـه إليّ في همس ... هـل تريـد أخـا أو أختـا ... وتوتـرت أعصابي وتحرّك دمـاغي وعـاد الصراخ يعذّبني ، وانتقلت الآلام من أرحـام أمّي إلى رأسى إلى أعصابى ، إلى كل خليّة من خـلايـا جسمي ومسكت أصابعـه وأزحتهـا عنى وصرخت « أنـا لا أريـد أحدا ... أريـد أن أعيش وحدى . أريـد أن أعيش وحدى » كنت أحب أمّي ومـازلت أحبّهـا ... وعـادت أصابـع والدى تتحسّس جبيني ، تداعب شعرى ، وشعرت أنّـه قـريـب مني ، فمسكت يـده قـائلا وقـد عـاودني الهدوء ... هل تحبني يـا أبي » تـوقفت أصابعـه قليـلا ثم قـال في بـرود « طبعـا أحبك » وغمرتني راحة عميقـة ، فسألتـه متضاحكا « لمـاذا اذن تحتـاج إلى طفـل آخـر ... لمـاذا تـريـد طفـلا آخـر ... وعـادت أصابـع أبي تدب فوق جبيني ، وعـادت تتخلّـل شعـرى وعـاد صوتـه يهمس في أذني في رقّـة وحنـان يجب أن لا تـكون أنـانيـا يا بني » تضاحك قليـلا فـكدت أصرح ... لسـت أبي . أنت أبوه وحده ... لـه وحده » وأحسست أنّني انهـار ... أن أعصابي تتـراخى ، فـكان انخـذالي وكـانت هـزيمي وكـان افـلاسي ...

وهدأ الصراخ فجـأة ، وعـادت وشوشات النسوة تصل آذاننـا فعـاد أبي إلى فـراشه واستلقى عليـه وبقينـا صامتيـن ، وانفـرج البـاب . فدخلت إلينـا خيوط النور البـاهتـة ... بـدأت ستر الظـلام في تلك الساعة تتبدّد شيئا فشيئا وعندما انطلق المؤذّن يدعوا إلى الآهـ ، علمت أنّ الساعة فجر . وسرعـان مـا انقطعـت خيوط النور عن الحجـرة الضيّقة فقـد دخلت عمّتي بقـامتهـا الطّـويلـة ... ولـكنهـا لـم تـكن تعلـم أنّني مستيقظ في تلك

الساعة ، فهي تعرفني كسولا ولا مباليا ، وكانت لحظة عنيفة ، لحظة انتظاري « إنّه طفل » هكذا تمتمت ، فذهلت وشعرت بالهزيمة ... جاء من يشارك حبّك ... من يقاسمك الحنان الّذي تمتعت به طويلا .. جاء غريمك ... وعاد صوت أبي ... عادت كلماته تثقب دماغي « لا تكن أنانيا يا بني ... لا تكن أنانيا » وكدت أجن ... فأزحت عني الغطاء وانتصبت جالسا فوق الفراش ... ضاعت كلمات عمّتي في أرجاء الغرفة . فلم أسمع ما أردفته ... ولكن جملة أخيرة تناهت إلى مسمعي « البركة في أحمد قالتها في همس حتّى أنّي كدت لا أسمعها ... فانتفضت في مكاني وصرخت في وجه عمّتي « اني أريده . أريده ، أريده أخي ، وامتثلت أمامي صورة أمّي . أمّي وقد استسلمت إلى عجوز حمقاء ، أمّي وهي ترفع يديها إلى السماء ، ترفعهما إلى الله ، فنقمت على الله والعجوز ... لتخرج العجوز الحمقاء وليخرج الله . عجوز حمقاء وإلآه أحمق ، الله لا يعرف دارنا ، الله لا يعرفنا ، الله في بطون الاغنياء .... وسالت دموعي وأحسست أنّ أبي كان يبكي ، واستسلمت وأحسست أن أصابعه عادت تمسح برفق جبيني ، عادت تتخلّل شعري واستسلمت .

وفي الصّباح كان أبي يبحث عن الفأس والمسحاة ، ثمّ شاهدته يحفر قبرا ... كان قبرا صغيرا ، طوله شبران ، وعندما كان يواري سادس ابنائه التراب ، أخذت الفأس والمسحاة ، وحفرت قبرا ، كان شاسعا وكان طويلا ... سألني أبي باسما « لمن هذا القبر » فقلت وأنا أنفض يدي من بقايا التراب العالق بهما « هذا القبر حفرته لإلآهي » ابتسم ثُمّ ضحك ... وقد كان مؤمنا ... كان مؤمنا .

م. ب.

اغنية للقدس

شعر : علي عارف

المَسْجِدُ تَأكُلُهُ النَّارُ ... وَالعُرْبُ سَهَارَى سُمَّارُ
وَالقُدْسُ تُدَنَّسُ حُرْمَتُهُ ... سَنَتَيْنِ فَأيْنَ الثُّوَّارُ

حَفَظَ التَّارِيخُ لَهُ شَانَا ... أعْلَى المَرْوَانُ الارْكَانَا
وَصَلاَحُ الدِّينِ تَدَارَكَهَا ... لِلْكُفْرِ يُقَوِّضُ سُلْطَانَا
أيَّامَ الدَّهْرُ لَنَا دانَا ... وَأضَاءَتْ فيه الانْوَارُ
أيَهُونُ اليَوْمَ وَمَا هَانَا ... وَتَجُورُ عَلَيْهِ الاقْدَارُ !

يَا ابْنَ المرْوَانِ فهلْ تدري ... وَعِظَامُكَ ذَابَتْ في القبْرِ
أنّ الاحْفَادَ أضَاعُوا مَا ... شَيَّدْتَ لِدِينِكَ فِي العُمْرِ
فَالمَسْجِدُ خَال كَالقَفْرِ ... يَتَطَاوَلُ فِيهِ الفُجَّارُ
وَالسَّاحَةُ ثَكْلَى في ذُعْرِ ... تَتَنَادَبُ فِيهَا الاطْيَارُ

وَالقُبَّةُ كَانَتْ تَأتَلِقُ ... بِالقُدْسِ يُعَانِقُهَا الافُقُ
وَتُشِعُّ النُّورَ عَلَى بَلَدِ ... يَدْعُو الحُجَّاجَ فَتَسْتَبِقُ
أمْسَتْ فِي لَيْلٍ تَحْتَرِقُ ... وَتَنُوحُ عَلَيْهَا الاشْعَارُ
والزُخْرُفُ أسْوَدُ يَخْتَنِقُ ... بِدُخَانِ النَّارِ وَيَنْهَارُ

يَا قُدْسُ تُرِكْتَ لِمُغْتَصِبِ ... يَسْقِيكَ المُرَّ وَلَمْ نَثِبِ
وَتَجَاسَرَ يَنْسِفُ أحْيَاءَ ... كَيْ يَطْمِسَ آثَارَ العَرَبِ
فَنَصِيحُ وَنَنْحَبُ عَنْ كَثَبِ ... أيَزُورُكَ يَوْمًا زُوَّارُ
وَيَؤُولُ الدَّمْعُ إلى طَرَبِ ... وَتَفُوحُ بِأرْضِكَ أزْهَارُ
وَلَكَمْ رَدَّدْنَا فِي كَمَدِ ... « سَنَعُودُ إلَيْكَ » وَلَمْ نَعُدِ

أغْـرَانَـاالوَعْدُ نُـزَيِّنُـهُ للنَّفْسِ وَنِهْنَـا فِي العَدَدِ
فَقَبِلْنَـا الحَاضِرَ رَهنَ غَدِ بِخِيَـامٍ يَكْسُونَـا العَارُ
فِيهَـا نَقَتَاتُ بِمَدِّ يَـدِ وَالحَقْلُ يُنَـادِي وَالـدَّارُ

« عَرَبِيٌّ » نسبَتُهُ مُغْتَرِب كَمْ كَانَ يفَاخِـرُ بِالنَّسَبِ
سُلِبَ التَّـارِيخ وَمَوْطِنَـهُ أعْمَاه السَّاسَةُ بِـالخُطَبِ
الآنَ تَفَطَّنَ لِلْكَـذِبِ الآنَ يَهُـزُّهُ إعْصَـارُ
فالصَّبرُ تَفَجَّرَ عنْ غَضَبِ والصَّدْرُ يَمُـوجُ بِـه الثَّـارُ

ع-ع

قائمة نقدية حول آثار علي الدوعاجي وما كتب عنه

بقلم : رضا الكشو

عرفت سنة تسع وتسع مائة وألف مولد ثلاثة أدباء بتونس : أبو القاسم الشابي ـ علي الدوعاجي ثم ابراهيم بو رقعة ٠

ونهتم في هذا البحث بالاديب الثاني٠ حررت مقالات (*) حول علي الدوعاجي عرفت بجوانب شخصيته ٠ فمنها ما كتب في حياته مثل ما هو بالسرور وبالثريا ، أو عند تأبينه ٠٠ ثم بمناسبة مرور خمس سنوات على وفاته كما هو الشأن في مجلة الندوة وكذلك أثناء مرور عشر سنوات وكانت هذه الفترة خصبة اذ شارك فيها أصدقاؤه مصطفى خريف وزين العابدين السنوسي والهادي العبيدي ومحمد صالح المهيدي وختاما حسونة الجويني عند مرور احدى عشر سنة ٠

(*) مقالات تعريفية

1 ـ الهادي العبيدي : بالريشة والقلم ـ السرور ـ عدد 1 ـ 1936 ٠

2 ـ هل تريد أن تعرف ؟ علي الدوعاجي : صفحة خاصة بمجلة الثريا ـ عدد 12 ـ ديسمبر 1944 ـ ص 10 ٠

3 ـ علي الدوعاجي : في ذمة الله ـ الصريح ـ السنة 1 ـ السبت 4 جوان 1949ـ العدد 20 ـ ص 2 ٠

4 ـ الأنيس : 8 جوان 1949 ـ مات الدوعاجي ٠

5 ـ زين العابدين السنوسي : علي الدوعاجي ـ مجلة الندوة ـ مجلد 1 ـ عدد 4 ـ أفريل 1953 ـ ص 5 ـ 19 ٠

6 ـ حياة علي الدوعاجي : مجلة الندوة ـ مجلد 2 ـ عدد 3 ـ ماي 1954 ص 48 ٠

لكن اختلف هؤلاء فى طرق الموضوع فتعمق البعض فى البحث عن مولده وحياته الشخصية • أما الجانب الثانى فاهتم باحصاء آثاره مثل المحاولات التى قام بها زين العابدين السنوسى •

وقد نحصل بواسطة هذه المقالات على صورة تكاد تكون كاملة حول حياة أديبنا كما نتأكد من صحة بعض الجوانب عند اتفاق هؤلاء الباحثين حولها •

أصلـــه :

ولد على الدوعاجى بتونس سنة 1909 ، وشاع لقبه بمد الدال ، لكن أثبت

---

7 ـ مصطفى خريف : على الدوعاجى شجـون من حـديثه ـ الفكـر ـ السنة الثالثة ـ عدد 8 ـ ماى 1959 ـ ص 21 ـ 28 •

8 ـ زين العابدين السنوسى : ميـراث على الدوعـاجى ـ الفكـر ـ السنة الرابعة ـ العدد 10 ـ جويلية 1959 ـ ص 22 ـ 32 •

9 ـ الاذاعة : السنة الاولى ـ العدد 8 ـ السبت 22 أوت 1959 ـ ص 20 ـ 25 •

- مصطفى خريف : [تأبين الدوعاجى] ـ نشر نفس المقال تحت عنوان «على الدوعاجى كما يراه سيدى مصطفى» العمل ـ الجمعة 21 مارس 1969•
- زين العابدين السنوسى : حياة الدوعاجى •
- الهادى العبيدى : الدوعاجى كصحفى •

10ـ الاذاعة : السنة الاولى 1959 ـ عدد 9 ـ السبت 5 سبتمبر ـ ص 16 •
- محمد صالح المهيدى : ثقافة الدوعاجى •

11ـ حسونة الجوينى : أضواء على أدب الدوعاجى ـ مجلة الفكر ـ العدد 8 ـ ماى 1960 ـ ص 75 و 76 •

12ـ توفيق بكار : الدوعاجى فنان الغلبـة ـ التجـديد ـ عدد 5 ـ جوان ـ جويلية 1961 •

13ـ جريدة العمل : الجمعة 21 مارس 1969 ـ ص أدب وثقافة ـ مقال : نماذج من الادب التونسى تترجم الى الفرنسية •

أديبنا انعدامها إثر حديث له مع المرحوم مصطفى خريف (I) وعلل هذا بارجاع اسمه الى أصل تركى ، وقد تضاف الجيم فى هذه اللغة للدلالة على صناعة كـ قهواجي وكفتاجي وعلى هذا الشأن دعاجي : من الدعاء ، ربما تعاطى جده هذه المهنة فى المسجد أو بين يدى الامراء ٠

ولم أطمئن الى قول الدعاجي فى هذا المضمار بل استعنت بـزميل تركـى لاثبات هذا الزعم ٠ فبين لى هذا الاخير أن الأتـراك لا ينطقـون الـواو فلهم و (**الضمة**) ما يقابل U فى الفرنسية وحرفة الدعاجي موجودة لحد الآن ٠ ونجد عائلات تحمل هذا اللقب لذلك نعتبر ما ذهب اليه أديبنا صحيحا من ارجاع اسمه الى أصل تركى علاوة على الحاقهم الجيم بكل صيغة دلت على حرفة ٠

وها هى بعض الأمثلة تبين لنا وجود الجيم فى أسماء هذه الحرف ٠

طبـاخ : **آشجي** ٠

خبـاز : **أكمكجي** ٠

بائـع الشربـات : شربتجي ٠

عـون : **أوداجي** ٠

ويمكننا الذهاب الى تأويل ثان ، فبالرجوع الى لسان العرب **نجد** :

الدعـج والـدعجة : السواد ، وقيـل شدة السواد وقيل الـدعج : **شدة** سواد العين وشدة بياض بياضها ، فتقول امرأة دعجاء ورجل **أدعج** ٠

فربما اتصفت عائلة الدعاجي بهذه الميزة فأطلقوها عليه وحرف العامة أصل التسمية من الدعج الى الدوعاجي وإن كان هذا التأويل أمرا مستبعدا ٠

على كل فعائلة الدوعاجي من أصل تركى من سلالة الجنود الأتراك الذين قدموا تونس أثناء استنجاد مسلمى شمال افريقيا بالدولة العثمانية ـ وهى فى عظمتها آنذاك ـ للـرد على هجومـات الصليبيين المستقـرين بالسـواحل الاوروبية ٠

أســرتـه :

أما والده فهو الحاج محمد الدوعاجي من عائلة بلدية بتونس سكنت بنهج مارس قرب حى باب سويقة ٠

وأمه هى السيدة نزهة بنت شقشوق من طبقة رفيعة ـ أصل عائلتها من جزيرة قرقنة ـ احتل والدها منصب عامل لدى البايات ، حكم جزيرة جربة فترة من الزمن وبهذا المكان قضت والدة علي طفولتهـا وشبابهـا حتى موعـد زفافها ٠

(I) انظر قائمة المقالات التعريفية ، مقال عدد 7 ٠

أنجبت بنات وبنين ولم يعش لها من الذكور إلا علي ووافق ميلاد أديبنا العام التاسع لسن أخته عائشة . فابتهج به والداه اذ كان وحيدهما وأثر هذا على تربيته فلقي دلالا وعطفا رقيقا من قبل أمه حتى أنها كانت تناديه : **علالة** (2) .

وورث علي ثقافة ممتازة وتربية حسنة عن أمه بما أنها من وسط عائلي راق ، وأرجع مصطفى خريف (3) ذكاء أديبنا ودقة ملاحظته ورهافة حسه الى أمه إذ ورثها من عندها .

يتمـــه :

لكن لم يتمتع علي بالحنان الأبوي ففقده أثناء صغره واختلف الباحثون في تحديد سنه آنذاك واعتبر حسونة الجويني (4) هذه الوفاة في سن الثالثة بيد أن المهيدي (5) زعم كونها في سن الخامسة .

على كل فالفارق طفيف . وقد أثر هذا اليتم على الدوعاجي فأكسبه حساسية مرهفة وقوى عطف أمه عليه فـ « دللته » وتسامحت معه في كل تصرفاته . واستغل علي هذه الحرية فانقاد وراء شهواته غير مبال بأوامر أمه وعندها يمكننا فهم انحرافه وإدمانه على الخمرة فيما بعد اذ لم يجد سلطة تردعه عن هذه الأعمـال .

أما حسونة الجويني فبالغ من جهته في تسامح أمه له حتى زعم : **وكانت لا ترفض له أمرا أبدا** (6) ، فنلاحظ غلوا في هذا الحكم الجازم خاصة اذا علمنا رغبة الدوعاجي في فتح دكان تجارة يشرف عليه بنفسه فعارضته أمه في هذا الأمر وما هذا إلا مثال من الأمثلة المتعددة .

تعلمـــه :

دخل مدرسة قرآنية قرب داره وبها تعلم مبادىء اللغتين الفرنسية والعربية ، لكنه لم يلبث بها طويلا اذ غادرها في سن المراهقة عند اجراء

---

(2) انظر المقال السابق .
(3) انظر المقال السابق .
(4) انظر قائمة المقالات التعريفية مقال رقم 11 .
(5) انظر قائمة المقالات التعريفية مقال رقم 10 .
(6) انظر مقال رقم 11 .

الامتحانات النهائية وبذلك انقطع عن مواصلة المرحلة الثانوية والدراسة بجامع الزيتونة وأرجع زين العابدين السنوسي هذا الانقطاع الى داعي العزة والتكبر فشعر ان مثل هذه الامتحانات تنقص من كرامته ، لكن أغلبية أصدقائه يرجعون هذا الى طيش وعدم مبالاة نتجت له من افراط في نيل الحرية الى جانب غناه فشعر أنه غير محتاج للمواصلة ٠

عملـــه :

بعدئذ دخل الحياة العملية ، فاختار مهنة التجارة واشتغل في « بازار الوطن » عند السيد المبزع أحد أصدقاء والده ، ابتدأ برتبة صانع ثم لم يلبث أن ارتقى الى رتبة أجير فاتقن التجارة ومهر فيها لكن ما هو سر نجاحه في هذه المهنة ؟ ألعلمه بالحساب ؟ أم لبشاشته مع الناس ؟ والغالب لمزيج هذين السببين ٠

ومن الناحية الادبية أثرت هذه المهنة على نفسه إذ تمكن من معرفة النفس البشرية ومن حفظ أمزجة عديدة ومتنوعة ٠

وشعر الدوعاجي بمهارته في هذه الحرفة فطمح الى فتح دكان خاص به فعارضته أمه ولم تمنحه المال خوفا عليه من الضياع ٠ ثم أراد تعاطي مهنة الفلاحة وخدمة الأرض التي خلفها له والده ، لكن منعته أمه من جديد خوفا عليه من شقاء الأسفار ، ظانة أن الأموال التي ورثها تكفيه للعيش مطمئنا طول حياته ٠

واضطربت حالته إزاء عزيمته الحادة وتصرفات أمه فلا بد أنه مال الى الخمول واليأس ، فافقده معنى الحياة وأوجدت له هذه البطالة فراغا فلم يجد عملا يشغله ، لذلك أقبل على الخمرة وتعاطي المخدرات ، واتخذ هذا من باب تسلية النفس ووسيلة لمغادرة هذا العالم كي ينسى همومه ومصائبه ٠

كما مكنته هذه البطالة من الانصراف الى الادب بل من الشغف به اذ حاول افراغ كل طاقاته الجسمية والفكرية فيه ٠ **وكان اصدقاؤه يؤمون منزله ويتجاذبون أطراف الحديث في الأدب والشعر والفن** (7) ٠

أثر عليه هذا الاتصال باصدقاء مثقفين كما نمت هذه المناقشات معلوماته ولا بد أنها دفعته لمزيد البحث والتعلم ٠

---

(7) راجع مقال رقم II ٠

ثم اشتغل عند السيد زين العابدين السنوسي فى مجلسه بدار العرب طيلة سنة 1931 – 1933 ، لا يبرحه من الساعة العاشرة حتى الزوال ومن الساعة الثالثة حتى الساعة العاشرة .

فشغف بالصحافة وتكون من الناحية العملية وحذق الكتابة حتى أنه أصدر مجلة السرور فى 30 أوت 1936 ثم باشر الكتابة فى الصحف الادبية عند توقف مجلته ، فحرر « بالزهرة » و «الأسبوع » و « الثريا » وبعد ذلك انصرف الى العمل الفنى فى المذياع فباع أغانيه للفنان صالح الخميسى وألف « روايات » و « سكاتشات » تقاضى عليها أجرة مكنته من عيشة بسيطة .

أصدقاؤه :

أغرم الدوعاجي – حسب خريف – (8) بالشاعر الكبادى وحضر مجالسه . وسمى الكبادى صاحبنا بـ **واصل بن عطاء** للثغة فى لسانه ، لحقته فى مطلع شبابه ثم زالت حتى أن بقية اصدقائه لم يعرفوه بها .

عاشر كذلك العربى التركى وسهر فى دكانه مع جماعته والتذ لخرافاته وأساطيره ، وبهذا نمى خياله .

صاحب زين العابدين السنوسى فى مجلسه وبذلك تعرف على كثير من الادباء الذين ترددوا على هذا النادى .

وجمعت مجلة السرور حوله ثلة من الأصدقاء من بينهم :

- محمد العريبى
- الهادى العبيدى
- عبد الرزاق كرباكة
- مصطفى خريف
- عمر الغرائرى
- عبد العزيز العروى

وها هو مصطفى خريف يسوق لنا جماعته اذ يقول :

وعند حضور بيرم الى تونس انضم الى جماعتنا وكان أبو القاسم الشابى ذا شغف ببيرم وبعلى ، لكن مرضه وشؤونه العائلية لم تسمح له بمداومة

(8) راجع مقال رقم 11 .

الاتصال بنا فكان يقضى ما يجد من أوقات فراغ فى التفسح معنا بالضواحى والأجنة وأذكر كثيرا من الليالى قضيناها « بالبلفدير » الدعاجي وبيرم والشابى والحداد والدرعي والعبد لله ـ يعني مصطفى خريف ـ ٠

لذلك نلاحظ معاشرة الدوعاجي لادباء عصره أمثال الشابى والحداد وبيرم والشاذلى خزندار علاوة على مديرى المجلات الذين نشط معهم وخالطهم ومدهم بقصصه أمثال البشروش ونور الدين بن محمود مدير الثريا ٠ ثم أصدقاء الشابى أمثال الحليوى وبورقعة الى جانب الممثلين والفنانين الذين مدهم بمسرحياته وأغانيه ٠

ولا يمكننا تعديد كل أصدقائه إنما اقتصرنا على أهمهم وخاصة على الذين تأثر بهم ووجهوه ٠ مثل بيرم التونسى ٠ فبالاحتكاك به تأثر بنقده وأخذ عنه النكتة المصرية وخاصة الزجل اذ اطلع على الزجل المصرى ٠

مـــزاجـه :

٠٠٠٠ من الصحافيين الكبار ولكنه عند نفسه قلقه ومن زجالينا الذين لا يشق لهم غبار ولكنه قلقه ومن رسامينا الحذاق ولكنه لا يود أن ينشر اسمه ويبرز رسمه (١٥) ٠

بهذه السطور عرفته مجلة الثريا ، ومنها نتبين نزعة التواضع التى امتاز بها الدوعاجي إن لم نقل طغيان الخجل على نفسه فى اظهارها للناس وفى التعريف بها فهو مقتنع فى قرارة نفسه بقصر بيانه لذلك نراه يتهرب من المسؤوليات ومن كل شيء يجر له الاعلان عن اسمه ويرسم صورته وصور لنا صاحب الثريا تهرب الدوعاجي من الشهرة بقوله :

ترد على علي فى كل اسبوع المكاتيب طلبة منه ان يعلن عن رواياته وازجاله ومداعباته فاسلمها اليه فلا يقرأ منها غير عنوان الباعث ثم يلقيها فى احدى زوايا الاهمال والنسيان لأن فى المسألة اعلانا عن الاسم وتوقيعا على الرسم وقبضا للمال (١١) ٠

وحتى إن نظم أغنية أو ألف قصة أو رواية فيقدمها فى حياء وخجل

---

(9) انظر مقال رقم 7 ٠
(١٥) انظر مقال رقم 2 ٠
(١١) انظر مقال رقم 2 ٠

ونندهش لما بين هذا المزاج والافكار من تباعد فآراؤه جريئة وثورية هاجمت التقاليد والبيئة والازياء والأغاني بكل عنف ثم ها أن صاحبها خجول منها ٠

على كل فقد غلبت النكتة على أحاديثه « **يسرك ابدا بما يقوله** » (12) ، التزم السكوت غالبا **وأكثر من ذلك فان له صبرا على السكوت** (13) ٠

تمسك الدوعاجي بالزي التقليدي فلم يتفرنج كبعض أصدقائه وارتدى « البلوزة التونسية » ودلتنا كل الصور التي نشرت حوله والصور الكاريكاتورية التي رسمت عنه على تمسكه بهذا الزي ٠

مصادر ثقافته :

اتصل الدوعاجي بالأدباء وأهل الفن واحتك بهم ثم حرص على حضور مجالسهم مثل تعلقه بمجلس العربي الكبادي واغتنم فرصة التقائه ببيرم التونسي **فاستعار منه بعض المجلات المصرية ليطالعها وكان ذلك وسيلة له اطلع بواسطتها على ما ينشر من الأدب الشعبي المصري كالأزجال والقصص والمواويل والنوادر والفكاهات** (14) ٠

وأغرم خاصة بالصحافة لاثراء زاده اللغوي ومال خاصة لصنف الظرافة والفكاهة مثل مجلة La Lustration ـ مجلة أسبوعية وفنية ـ ومجلة « روز اليوسف » التي عرفت برسومها الساخرة وعدد لنا مصطفى خريف مطالعاته العربية **فقد عرف** (يعني الدوعاجي) **أكثر كتب الجاحظ وقرأ الأغاني ويكفي أن أقول هذا ليعرف تضلعه في العربية ... وكان معجبا أشد الاعجاب بسيدنا محمد وبالجاحظ والمعري** (15) فتوضح لنا هذه القائمة أدب الدوعاجي فقد تأثر من غير شك بالنكتة عند الجاحظ واتبع المعري في عمق التفكير

كما اهتم السنوسي في احدى مقالاته بالرسم عند الدوعاجي فعدد لنا الرسوم التي عرفها له : **من عمر الخيام الفارسي الى ابن خلدون العربي التونسي ومن نيتشا اليهوى الالماني الاديب لعصرنا الى عبد الكريم الخطابي زعيم ثورة الريف اللاجىء الى القاهرة** (16) ٠

---

(12) انظر مقال رقم 5 ٠
(13) انظر مقال رقم 5 ٠
(14) انظر مقال رقم 10 ٠
(15) انظر مقال رقم 7 ٠
(16) انظر مقال رقم 8 ٠

وأضاف أثناء حديثه صورة لطاغور رسمها صاحبنا وعـزم على اخـراجها السنوسي في الجزء 19 من كتابه « أعلام الادب في افريقية » ·

وقد ذكرنا الدوعاجي في هذه الرسوم بجبران خليل جبران اذ افتن برسم المشهورين فله مثلا رسم لابن خلدون وإن قارنا بين الرسمين ـ معتمدين في ذلك على ذوقنا الشخصي ـ وجدنا ميزات كل لوحـة غير أن جبـران اعتنى خاصة بنظرة مؤرخنا التأملية ·

وليس المجال هنا للحديث عن رسوم الدوعاجي إنما نستفيد من ذلك أن أديبنا لم يكن بمعزل عن الأدب العربي القديم ولا عن الأدب العالمي فرسمه لابن خلدون واهتمامه بابراز ميزاته لا يتـم له دون معرفـة ـ ولـو بصـورة بسيطة ـ لآثار هذا المؤرخ خاصة وأنه رسمها عن ذوق ورغبة فيكون العامل الأصلي الذى دفعه لهذه اللوحة الافتتان بجوانب من هذه الشخصية ·

إذن أثرت كل هذه العوامل على شخصية أديبنا من احتكاك بالأدباء وإقبال على المطالعة واتصال بالشعب سواء عند اشتغاله بالتجارة أو عند مكوثه بالمقاهى فلاحظ عن كثب سلوك الأفراد تجاه بعضهم وتجـاه المجتمـع وهـو خير زاد للثقافة إذ هي ثقافة حية تعيشها وتلاحظها بالعين الى جانب الجولة التى قام بها بين حانات البحر الأبيض المتوسط فقربته من أجناس متعددة المـذاهب والعادات وعرفته على أفكار جديدة ·

فتمكن الدوعاجي من نيل ثقافة واسعة وعميقة مع ما امتـاز به من ذكـاء فطرى وشغف بالمطالعة وعزيمة وراء طلب المعرفة دفعته الى التطلع والجد حتى أنه مدد أوقات عمله عند ساعات النوم فتراه في كل نهار ، **ونهاره يبتدىء على الثالثة بعد الزوال وينتهى على** [الساعة] **الرابعة صباحا على كرسى ·· وبين اصبعيه سيقارة مغذية** (17) ·

إدمانه على الخمرة مرضه فوفاته :

تعاطى الدوعاجي أنواع المخدرات وأدمن على الخمرة وبذلك انتابه مرض السل مما اضطره للتنقل الى أريانة فقضى بها مدة سعيـا وراء تحسين حـاله لكن تدهورت صحته فدخل مستشفى « شارل نكيول » وزاره يوم الثلاثاء 24 مـاى 1949 الهادى العبيدى صحبة زين العابدين السنوسي ومحمد ابن فضيلة(18) ،

---

(17) انظر مقال رقم 2 ·
(18) انظر مقالة رقم 7 ·

فلاحظوا تقهقره الصحي الى جانب إهمال فى معالجته الشيء الذى دفع الزملاء الى التوجه لمقابلة وزير الصحة طالبين منه نقل الدوعاجي الى مصحة – سينتاريوم – [خاص بالذين يدفعون مقابل العلاج] • ولم يجدوا الوزير فى ذلك المساء •

لكن فى الغد أذن الطبيب أهل الدوعاجي بنقل على الى بيته حيث لم يعد هناك أمل لعلاجه ولم يأت مساء يوم الجمعة حتى لبى داعى ربه يوم 27 ماى 1949 / شعبان 1368 هـ •

وبقيت أمه بعده تسع سنوات الى أن اختطفتها يد المنون •

عرفتنا هذه المقالات بحياة الدوعاجي فكشفت لنا بعض الغموض وقد حررها ثلة من أصدقائه عاشروه وتعرفوا على أفكاره لهذا وثقنا بأخبارها ولئن ربحنا من جهة فقد خسرنا من جهة ثانية إذ جاملوا صديقهم وتحرجوا من نقده بل مجدوه حتى أن مصطفى خريف يستهل مقاله دون سابق تعليل ، **على دعاجي نموذج للعبقرية الفذة الأصيلة** (19) •

كما أن هذه الأبحاث كتبت حسب مناسبات الذكرى لذلك أتت ارتجالية قطغت عليها نزعة التعميم وخلت من الأبحاث العلمية العميقة وقليل من أصحابها تصدى لموضوع معين وطرقه من كل جوانبه ، إنما هى توارد خواطر : شارك الدجاعي فى الصحافة والمسرح والغناء دون بيان الأسباب والدوافع والنتائج•

زيادة على هذا مزج هؤلاء الأدباء القصة بالمسرح وبالحياة فأشاروا لها بصورة إجمالية وأطلقوا عليها أحكاما حسب أهوائهم غير مرتكزة على حجج واستشهادات ثابتة •

وهكذا تأخرت الدراسات التحليلية والنقدية المبوبة حسب البحث العلمى ما عدا القليل النادر منها •

وإن كنا نجل الدوعاجي فلا يعنى هذا أنه بلغ درجة الكمال فنتغاضى عن أخطائه ولا ننقده فنتوقف عن مجرد الملاحظات : استعمل الدارجة فى قصصه ، فليس هذا بكاف : هل نوافقه فى استعمالها ؟ هل هذب هذه الدارجة ؟ ما هو مآل مسرحياته ؟ هل اتسم أدبه بالأصالة ؟ كيف كانت أقاصيصه ؟

(19) انظر مقالة رقم 3 •

هل أقتصرت على الواقع التونسى أم تناولت مشاكل انسانية ؟ ما هى قيمتها بالنسبة للأدب التونسى ؟ هل ارتقت به ؟

نقول أقاصيص الدوعاجى واقعية ، لكن كيف كانت هذه الـواقعية ؟ هل اندفعت وراء العواطف والمشاعر أم آمنت هذه الواقعية بالمبادىء الانسانية ، وتبنت المعضلات البشرية الكبرى كالعدل ... الرخاء ... المساواة .

ثم عاش الدوعاجى فترة الحروب المهولة ، الحربين العالميتين فما كان تأثيرهما على أدبه هل خامرت ذهنه بعدها آراء حول الحرية ؟

ولا نقارنه هنا بـ Camus ولا بـ Sartre اللذين استنتجا آراء عميقة بل نقارنه بأديب تونسى وصديق له مر بنفس الظروف وهو محمد العريبى وها هى أقواله تشهد على ذلك عند تعريفه الحرية :

هى زغردة الرصاص ودوى القنابل وأنين الجرحى وهمهمة القتيل وصليل السيوف ...

فأين الدوعاجى من هذه الآراء ؟

ر . ك .

عندما يحفل القمر

بقلم نور الدين بن بلقاسم

تصيب الانسانية في مسيرها الطويل غفوات ، تستيقظ بعدها لادراك قطار التطور وتسير بقدم ثابتة رغم نقيق الضفادع وتفاهات القردة ٠

الجو سديم ... والسماء حمراء ... وسطح الكواكب ليِّن كالطين ... الشمس باردة تطلع من الشرق ، وأنفاس الارض تتصاعد دخانا إلى السماء ... تصفيرة طويلة يصعدها القطار اعلانا عن السفر الطويل ...

الجمع غفير على الشاطيء ... غرباء أنظارهم معلَّقة إلى بعيد، أبصارهم تسبق القطار ، تستكشف حجب الغيب ... ساروا لا يلوون على شيء في الطريق الطويل ... شفاههم تتحرك ، لعلهم مصابون بالجنون منذ البدء ...

في الطريق الطويل ، كرة معلقة على اللاشيء،ذات مساء ارتسم البحر بشاطئه القريب على الكرة ، أما الشاطيء الآخر البعيد ، فيكتنفه الغموض ، وَينامُ فِي لَحْفِ الْمَجْهُولِ ...

الكرة ضخمة غير مستقرّة ، والاقزام يجدون في السير للوصول إلى نهاية الدرب الطويل ... الطريق تخترق البحر الاصفر ... الجمع يسير ويتحرك ذات اليمين وذات الشمال ... يسير ملتحما ، لولا حرارة مقلقة ستذهب مع برودة اللّيل وطلاوة الصباح ...

صياح يتعالى ، أنين أليم،حشرجة مرة صاعدة إلى أذن السماء! الجمع أصابه الجن ! ! قتال عنيف يشب بين أفراده ... يا الله ! انها بلاهة عرجاء ، وغباوة مطبقة !..

الجمع الكبير يتفرق ... لكن بعد شوط يرجع الالتحام ! هذا عجيب ! يتقاتلون ويسيرون في درب واحد ! لا غرابة الدرب وحيد في البحر الشاسع الاصفر ...

الكرة ترقص أحيانا ، لعلها تسير ، ولكن إلى أين ؟ المدينة بعيدة والطريق طويلة ... التعب قد استقر في المفاصل ... ترى هل سينام الجمع ؟ ولكن القطار سيفوت ، ويجب أن لا يفوتهم !

على حافة الطريق بعض القردة ، تلعب بالرؤوس المقطوعة ... كلاب تلعق الدماء وتتلمظ ، لانها تستعذب طعم الدماء ... أجسام مرّ عليها القطار فطحنها وتعبّد بها الطريق ... المدينة البعيدة لا يصلها الجمع الا على هياكل العباد ... الذئاب النهمة تتعاوى على حافتي الطريق ... الجمع يسير لا يلوي على شيء ...

صفير القطار مملوء بألحان المجهول ...
الكرة ترقص رقصتها الدائريّة بلا كلال ...
الجمع يخفف من المسير ، يتباطأ ، يتوقف ...

شرع أفراده ينزعون ثيابهم ، يلبسون عوضها جلود قرود وجلود ذئاب ... الكل يتلهى برمي الرؤوس المقطوعة ...

القرود والذئاب تنام في الطريق ... في غفوة النوم العميقة بدأت الضفادع نقيقها ... الامواج تزحف في صخب شبيه بالنحيب لترمي بالقرود والذئاب في الاعماق ...

الكلّ يستيقظ بعد غفوة دامت قرونا ... ينظرون بأعين يطل منها الموت ، إلى عربدة الموج ، ووحشة السكون ، وزحف الظلمة ... يصغي الكل إلى صوت القطار الذى يكاد يتوارى ... يشمرون ويندفعون بخطوات جنونيّة ، لادراك القطارَ والوصول إلى المدينة البعيدة ...

احلام هـادفـة تـداعـب الـرؤوس ...

قـوّة على أهبـة الانفجـار ...

الـكـون يصعـد انفـاسه الاخيـرة ، تخنقـه أ كـفّ آدميّـة ...

القمـر ينتظـر ليـالي الانس ، والمـريـخ أسمـار الغـرام ...

ن. ب.

الحانة والفتيلة

شعر : عبد الله كحلاوي

اللَّيْلُ وَالكُؤُوسْ
وَالْحَانَةُ القَدِيمَهْ
والآهَةُ الطَّوِيلَهْ
تَعِيشُ فِي أعْمَاقِي
وَالشَّمْعَةُ السَّخِيه
تُضِيءُ كَهْفَنَا
"وكَمْ بَنَيْنا منْ خَيَالٍ حوْلنَا"

اللَّيْلُ والكُؤُوسْ
وَالنَّادلُ العَجُوزْ
فِي سُخْطِه يُعَرْبِدُ
ويلعنُ الكُؤُوسَ وَالسُّمَّارْ
عِشْرُونَ عَاما قَدْ مَضَتْ
فِي الكَهْفِ والقَرارْ
عِشْرُونَ عَاما قَدْ مَضَتْ
فِي الكُفْرِ وَالشِّجَارْ ...

اللَّيْلُ وَالكُؤُوسْ
وَالبُؤْرَةُ الحَقِيرَه
وَالتَّبْغ يَنْخَرُ العُرُوقْ
وَمُومِس شِرِّيرَة عَقُوقْ
قَدْ افْنَتِ الزَّمَانْ
فِي الكَأْسِ وَالالْوَانْ
فِي التَّبْغِ والرِّهَانْ
بِقُبْلَةٍ مَحْمُومَةٍ طَوِيلَهْ
أوْ رشفَةٍ مِن خَمْرةٍ عَتِيقَهْ

اللَّيْلُ والكُؤُوسْ
وَصِبية صِغَارْ
عَلَى فتيلَةٍ تآكَلَتْ
يُراجِعُونْ ...
وَالجُوعُ يَحفُرُ المآقِي والبُطُونْ
وَالوَالِدُ الحَنُونْ
فِي الحَانَةِ القَدِيمَه
يُراهِنُ العَجُوزْ
والمُومِسَ الحَقِيرَهْ
"وكَمْ بنَيْنَا مِن خَيَالٍ حوْلنَا"

اللَّيْلُ والكُؤُوس
والفَأْرَةُ الصَّغِيرَهْ
حَفِيدَةُ الكَبِيرَهْ
تُقَضْقِضُ الغِطَاءْ
وَالصِّبْيَةُ الصِّغَارْ
أفْنَتْهُمُ الفَتِيلَهْ
وَالزَّوْجَةُ الحَزِينَهْ
تُجَفِّفُ المَآقِي

وَالوَالِدُ الْحَنُونْ
فِي البُؤرَةِ القديمه
يُرَاهِنُ الْعَجُوزْ
وَالمُومِسِ الحَقِيرَهْ
يَعُودُ فِي الْهَزِيعْ
فَيُطْرِدِ الصِّغَارْ
وَالزَّوْجَةَ الْحَزِينَه
وَطِفْلَهَا الرَّضِيعْ
االلَّيْلُ وَالكُؤُوسْ

وَالحَانَةُ القَدِيمَه
وَالزَّوْجَةُ الحَزِينَهْ
تَجُولُ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَهْ
تُنَاشِدُ السَّمَاءْ
وَتَطْلُبُ الرَّغِيفْ
بِصِبْيَةٍ صِغَارْ
وَالوَالد الحنون
فِي الحَانَةِ القَدِيمه
يُرَاهِنُ الْعَجُوزْ
وَالمُومِسَ الْحَقِيرَهْ ...

ع – ك
15–5–1969

اقرؤوا في الأعداد القادمة

- « الكاف مركز حضارى » بقلم : محمد فنطر
- « الانسان الصفر : حزب الصبح » بقلم : عز الدين المدنى
- « المفكر إذ يفكر » قصة – بقلم : سمير العيادى
- الفكر والحضارة – 2 – بقلمرمضان لاوند
- « جوعى سوف ياكل العالم » شعر : فضيلة الشابى
- « بين الفن والجمال » بقلم نور الدين بن بلقاسم
- « لمحات خاطفة عن ديوان المدنى » بقلم : محمد الهاشمى زين العابدين
- « فى النقد من خلال الغربال » بقلم : على العونى
- « الصمت والاشياء » قصة – بقلم : يوسف الحناشى
- « الفضاء وجدار الزيف » قصة – بقلم عمر الببة الخ ٠

ندوة القراء

النسر المقعد (*)

بين التجديد والتقليد

بقلم : محمد بن صالح بن عمر

خواطر حول موضوع القصة :

تدور أحداث هذه القصّة في عالم غريب له قوانينه الخاصّة ولا يشبه في شيء العالم البشري لما يكتنفه من غموض شديد لا سيّما وأنّ العلاقات التّي تربط بين حيوان وحيوان آخر نكاد نجهل عنها كل شيء وحتّى العالم نفسه يجد صعوبة في فهمها فهما صحيحا فكيف يجرأ الاديب إذن على خوض غمار هذا العالم الحيواني الغريب للبحث فيه عن موادّ لقصصه ؟ افلا تكون هذه القصص مجرّد حلقات من الاحداث الملفّقة التّي لا غرض للكاتب من وراء تلفيقها سوى اشباع فضول القارىء ؟ فالعلاقات البشريّة نفسها لا تزال في بعض جوانبها غير مدروسة دراسة واضحة المعالم فما بالنا إذن بالعلاقات الحيوانيّة التي لم يهتمّ بها العلم إلاّ منذ وقت قريب ؟

والذى يجلب الانتباه في قصّة « النسر المقعد » هو ان الكاتب قد تفطّن إلى أمر هام لولاه لكانت القصّة خالية من كلّ عمق إذ أنه جعل من النسور التّي يحدّثنا عنها في قصّته نسورا عادية شبيهة إلى حدّ بعيد بالنسور التّي نجدها في الواقع لا كما هو السائد في « كليلة ودمنة » وعند لا فونتين وفلوريون حيث نجد كل حيوان

(*) النسر المقعد ، قصة للطاهر قيقة نشرت بعدد جويلية 1969 من مجلة « الفكر » .

متقمصا لشخصية صنف معين من البشر بدعوى أنّ الادب غايته الانسان ينبع منه ليعود إليه وباعتبار أنّ العالم الحيواني عالم بسيط من المستبعد جدّا أن يعثر الكاتب فيه على موادّ لقصصه ولذلك اعتمد الادباء على ما يشاهد بالعين من هذا العالم الذي هو في حقيقة الامر أكثر غموضا وتشعّبا ممّا تصوّروا وكان من الاولى ان يبحثوا عن القوانين الدّاخلية التي تتحكّم فيه . والجدير بالذكر أنّ نظرة الادباء إلى العالم الحيواني لم تتطوّر الاّ منذ وقت قريب أي منذ ان أثبت علم « الزوولوجيا » مدى غموض هذا العالم وتعقده فأصبحت الحيوانات لاوّل مرّة في تاريخ الادب تدخل إلى القصّة كحيوانات عادية لها شخصياتها وأبعادها ومشاكلها الخاصّة المتجدّدة بتجدّد العصور .

ولعلّ ما يؤكد للقارىء صحّة ما نقول هو حرص الكاتب الشديد على المقابلة بين الحيوان والإنسان بين النسور من ناحية والبشر من ناحية أخرى فإذا به يصوّر لنا ذلك كلّه في لوحات رائعة نتبيّن من خلالها مدى حيرة هذه الطيور الكواسر إزاء ذلك المخلوق العجيب الذي : « عمّر الدنيا ولم يترك فيها شبرا الا احتلّه وبنى فيه بيوته وخطّ فيه مسالكه » وانّك لتحسّ بهذه الحيرة أكثر فأكثر عندما تقف هذه النسور ذاهلة أمام « الجلبة المتصاعدة إليها والإنفجارات المخيفة التي تنبعث أحيانا من العالم السفلي في ضباب يشبه السحاب تذعر منه الطيور فتلجأ إلى قلل الجبال » ثمّ انظر إلى هذه السذاجة العذبة التي تضفي على حديث النسر صبغة خاصّة : « ... وحلق يوما فوقنا طائر ضخم ثقيل في حجم سبعة نسور يصيح صياحا منكرا تصمّ له الآذان فهزّنا الدويّ هزّا وسألت أمّي عنه فقالت : انّه طائر يركب في جوفه ذلك النّمل الذي يسمّى البشر فاشتقت كثيرا إلى رؤيتهم . »

وهذه السذاجة التي حرص الكاتب على تصويرها هي من أهمّ فنّيات القصّة ذلك أنّ كتّاب هذا النوع من القصص قد اصطدموا بمشكلة عويصة لم يهتدوا إلى حلّ مرضيّ لها : هل يصوّرون الحيوان في قصصهم كما هو في الواقع أي بكلّ ما يصدر عنه من حركات وسكنات عادية وهذا يعني بالطبع تجريد الحيوان من كلّ ما قد

يلصق بـه من صفـات البشر ونفي وجود أي شكل من أشكال التّفكير عنده وفي هذا ولا شك خطر على روح القصّة إذ كيف يتسنّى للحيوان الّذى أصبح شخصيّـة من شخصيـات القصّة ان يصارع الاحداث ويـؤثـر فيهـا مـا دام لا يملك ولـو ذرّة واحـدة من العقـل أفلا تكون الشّخصيـات والحـالـة هذه مجـرّد دمى حقيـرة تحرّكهـا الاحداث ويتحكّـم القـدر في مصيرهـا بـدون ان تساهـم هي في تقـريـره أضف إلى ذلك أن الحيوان لا يتكلّـم لغـة الانسان وهذا من شأنـه ان يدعو الكاتب إلى حذف عنصر أساسي من عنـاصر القصّة وهو الحوار . أمّـا إذا عمد الكاتب إلى جعـل الحيـوان يفكـّر ويتكلم داخل القصّة فـإنّه يصبح شبيها بالانسان بل وينقلب إلى انسان في جلد حيوان إن صحّ القول فيكون من الاولى ان يقول الكاتب من أول قصّته : « إنّ هذا النسر الذى جعلت منه بطلا لقصّتي هو في حقيقة الامـر رجل كسائـر الـرجال ولا علاقة له بالحيوان على الاطلاق » وإلّا فمـا الداعي إلى القول بـأنّه نسر مـادام لا يحمل من صفات النسور إلّا الاسم لا غيـر .

وإزاء هذه المشكلة التي لا منـاص لايّ كاتب من كتـاب هذا النوع من القصص من الاصطدام بهـا لجأ صاحب « النسر المقعد » إلى حلّ طريف يتمثّـل في جعـل نسوره تفكّـر وتتكلّـم لكنّها عندما تصطدم بالحيـاة البشريّة يكون حكمها على هذه الحياة حكمـا ساذجا مرتبطا بطبيعة غرائزهـا الفطريّة ومن ثمّ فلقـد وفق الكاتب في التقريب بين الحيوان كما هو فى الـواقـع والحيوان كما ينبغي ان يكون في القصّة .

بين الطاهـر قيقـــة وأرلات ليـوتـو :

ذكـرت ان الحيـوان قد أصبـح يدخل إلى الادب الحديـث على صورتـه الحقيقيّة بعد ان كـان يتّخذه الادبـاء مجرّد رمـز لخدمـة أغراضهم السياسيّـة والاجتماعيّـة فإذا بنا نقف اليوم عند مشاكـل هـذا الكـائـن الحي غيـر المـزيّفـة ونعيش معـه حيـاتـه الخـاصة وجوّه الخاص وهذا مـا مكّننـا منه الطاهـر قيقـه في « نسره المقعد » وكذلك الكاتبة

أرلات ليوتو في مجموعتها القصصيّة : « ريش وشعر تحت الشّمس (1) » حيث تناول كلّ من هذين الكاتبين عددا من قضايا الطيور باسلوب واقعي مؤثر لا زيف فيه وعلى رأس هذه القضايا التي لا تقل خطورة عن قضايا الإنسان نوع العلاقات الّتي أصبحت تربط بين الطير والبشر في عصرنا الحديث ولقد رأينا كيف صوّر الطاهر قيقة تلك الهوّة السحيقة التي تفصل بين الطرفين إن جعل النسور تنظر إلى الإنسان بنوع من الحيرة الساذجة فلا تفهم شيئا ممّا يصنع في حياته ولا كيف يعيش لانها قد كتب عليها الفرار الدائم منه حتّى تتّقي شره لكن هذا لا يمنعها البتّة من ان تتحسّر على زوال ذلك العهد الاسطوري الامين حيث كانت « النسور ... وسائر الطيور تفهم لغة هؤلاء البشر وتتعاون معهم وكان سليمان ... قد سخّر جميع المخلوقات لاكتشاف أسرار الكون وبناء الهياكل والاساطيل والمنشات لم يشهد العالم عصرا مثل عصره اتّحدت فيه الكائنات ونسقت جهودها فشيدت معالم بقيت حلما نعيد ذكراه . ومات سليمان فاختلطت اللّهجات وكانت القطيعة » .

نعم ! لقد كانت القطيعة ... وأصبح الإنسان لا يحترم الطيور ويعبث بها ما طاب له ذلك بدون أي تورع أو احتشام فـ « على العصفور ان يبني وكره و ... عندما يتم له ذلك تأتي المرحلة النهائية لذلك الدور الجهنمي الذي يريد من الحياة ان تزهق انفاساً أخرى حتّى تضمن لنفسها البقاء » (ريش وشعر تحت الشّمس : ص 42) فما أشرس الطبيعة الّتي تجعل من تقتيل الطيور لذّة يستمرئها الانسان ! لكن ... مهما يكن من أمر فإن : « سيرة البشر هي هكذا : يحبونك ويطعمونك وفجأة تسمعهم يصيحون : امسك بـ (الطائر) واقطع له رأسه » (ص 36) تلك هي سنّة الحياة !

وتقف الطيور المسكينة حائرة في أمـ هـا تسأل القمر في لهجة يغلب عليها اليأس والحيرة :

« لاي أمـر ؟

(1) ARLETTE LEAUTAUD. Plumes et poils au Soleil, Collection ALTERNANCE — Paris 1960

« لاي أمر جُعِلَ الموت هدفا للحياة ؟

« لماذا يوجد مثل هذا الظلم على سطح الارض » (ص 38) . لكن الظلم لا يمكن له ان يستقرّ في هذه الدنيا بدون ان يخلق في نفوس المظلومين حبّ الثّورة الّتي سرعان ما يكثر انصارها وتنطلق السنتهم بالخطب استثارة للعزائم : « يا معشر ملوك الطير ... لقد ضاقت بنا الارض على رحبها وانقطع القوت وعمرها البشر واستبدّوا بجميع خيراتها . كنّا نطير أسرابا تحجب عين الشمس فنجد قوتنا أينما حللنا واليوم أصبحنا هباء منثورا طيورا منفردة هائمة فقدت الشراسة وحبّ القنص فلا تقوى على افتكاك قوتها » (النسرُ المقعد) .

وبدون اي خجل يتجاسر هذا الخطيب المتحمس لقضية الطيور على الدعوة إلى الوقوف في وجه الانسان : « هلمّوا انزلوا اجمعوا شتاتنا وقودوا جموعنا حتّى تصبح هذه الارض الغالية ملكا لنا ومستقرّا إلى حين » (النسر المقعد) .

لكن هيهات ان ينقرض الإنسان من على سطح الارض وهيهات ان تتحقق للطيور مثل هذه الاحلام البعيدة المنال . وهكذا ... « صفّقت النسور بأجنحتها وانقضت على ... (الخطيب) ... ونتفت له ريشه وعادت إلى أماكنها وتدحرج ... (هو) ... كرة حمراء تنزّ دما . »

وبذلك فلقد كتب على الإنسان ان يعيش سيّدا في هذا الكون ... وكتب الذل والهوان والعبودية على الطائر المسكين . ومن ثمّ فإن«الحيوانات بمختلف انواعها سواء كانت أهليّة أو بريّة تجد نفسها مدفوعة نحو هذا الإلاه ... وهو الإنسان بما يتبعه من خير وشر »
(ريش وشعر تحت الشمس : ص 15) .

بمثل هذا الصّدق وهذه البراعة اللّذين عولجت بهما قضيّة الحيوان والإنسان تمّ لكلّ من الطاهر قيقة وأرلات ليوتو ابراز هذه المخلوقات التي نجهل عنها الكثير في صورها الحقيقيّة وهذا ما يجعل لقصّة

« النسر المقعد » طابعا خاصا يميِّزها عن العديد من القصص العربيّة التى تناولت نفس الموضوع .

ملاحظات حول شكل « النسر المقعد »

ان شكل « النسر المقعد » هو شكل كلاسيكي بدون منازع إذ بدئت القصّة بعرض للأشخاص اللذين تولى تقديمهم البطل نفسه إلى القراء ثمّ يلي ذلك سرد لمجموعة من الاحداث المتشابكة التي يرويها البطل أيضا والتي تتشكّل منها حياته كُلها إلى ان تنتهي هذه الاحداث إلى مستقرّ أخير لها الا وهو موت الشّخصيّةالرئيسيّةفي القصّة ومن ثمّ فلم تخرج قصّة النسر المقعد من حيث شكلها عن حدود القصّة التّقليدية الّتي تسير أحداثها في خطّ أفقي يكون عادة على ثلاث مراحل : العرض والعقدة والحل بالإضافة إلى أنّ الكاتب قد حرص على توفير الوحدتين : المكانية (إذ جعل النسر يروي الاحداث وهو قابع في وكره) والزمانية (حيث ان القصّة كلها حديث يرويه البطل) ونحن لم نفهم لماذا حرص الكاتب على استخدام مثل هذا الشكل لا سيّما وان الموضوع الّذي طرقه جديد ولا يتناسب البتة مع هذا القالب التقليدي زيادة على انّ القصّة تفتقر من ناحية صياغتها الفنيّة إلى بعض الادوات الحديثة كتيار الباطن مثلا الذى نرى ان كل الظروف سانحة لاستعماله في مثل هذه القصّة ولو لجأ إليه الكاتب عوضا عن السرد البسيط لاضفى ذلك على القصّة صبغة جديدة بقطع النظر عن الهفوة الكبيرة الّتي ارتكبت في آخر القصّة والّتي تسببت فيها رواية الاحداث في صيغة الماضي حيث ان الكاتب جعل البطل يروي لنا مماته وفي هذا خطأ فني كبير .

ومن هنا تبرز لنا مشكلة أساسيّة، من مشاكل القصّة التونسيّة الحديثة وهي مشكلة مفهوم التّجديد في القصّة : فالبعض لا يزالون يعتقدون ان التجديد الحقيقي هو تجديد في الموضوع فيبدعون ايما ابداع في هذه النّاحية مثلما أبدع الطاهر قيقة الشيء الذى جعلنا نقارنه بكاتبة أجنبيّة ممتازة وهي أرلات ليوتو الاّ ان هذا الصنف من الكتّاب يهملون القالب الذي يصوغون فيه قصصهم فيأتي هذا القالب تقليديا باردا وروتينيّاً

مملاً ولا يتلاءم مع الموضوع الجديد الذى يطرقه الكاتب ولعل السبب الرئيسي لذلك هو ايمان بعض كتّابنا بأن الشكل الكلاسيكي شكل مطلق صالح لكل زمان ومكان فلا يقولون إذن بوجوب التّجديد فيه وإدخال بعض التّحويرات عليه ومن ثمّ فإنهم يقفون موقفا متحجرا حتّى إزاء الادوات الحديثة مع ان استعمال هذه الاوات يُفيد القصّة التُونسيّة ايما إفادة زيادة على أنّها تمكّن الكاتب من معالجة القضايا الإنسانية معالجة دقيقة لا تقدر عليها الادوات الكلاسيكيّة ومن الخطأ ان يعتبر البعض ان استخدام الادوات الجديدة في القصّة التُونسيّة قد يفقدها أصالتها فالاغنيّة الشّرقيّة مثلا قد حققت تقدّما باهرا خلال هذه السّنوات الاخيرة بفضل استعمال الفنّانين العرب لبعض الآلات العصرية ومع ذلك فالاغنية العربيّة لم تخرج قط عن الروح العربيّة الصّميمة ولا النّفس العربي الاصيل بل لم يزدها ذلك الاّ تقدّما على تقدّم .

فعلى القاص التّونسي إذن ان يكون ابن عصره وان يهتمّ بالتجديد في موضوعها حتّى تخرج بالقصّة التُونسيّة عن التفاهة والجمود .

م. ص. ع.

أضواء الفكر

◆ الملتقى السابع لهواة الادب :

أشرف السيد رئيس الجمهورية على الملتقى السابع لهواة الادب فى أواخر شهر جويلية بمدينة المنستير • وألقى الاستاذان محمد العربى عبد الرزاق ورشاد الحمزاوى محاضرتين لفتتا نظر النقاد ورجال الرأى لما تضمنتهما من آراء طريفة وما أثارتاه من نقاش وتعاليق •

وفى الجملة فقد نجح هذا الملتقى الذى تنظمه اذاعتنا الوطنية خاصة وان السيد الرئيس لم يبخل بابداء آرائه والمشاركة فى المناقشة كواحد من الادباء المشاركين وهذا من شأنه ان يشجع الادب وخاصة الادباء الناشئين •

◆ مهرجان يوغرطة الثالث :

انتظم بمدينة الكاف من ١٥ الى ١٨ سبتمبر المنصرم مهرجان يوغرطة الثالث وافتتحه السيد محمد مزالى مدير مجلة « الفكر » بكلمة حول العبر التى يحسن استخلاصها من حياة يوغرطة لعلنا ننشرها فى عدد قادم •

وألقى نخبة من الاساتذة محاضرات تاريخية قيمة نذكر منهم : **محمد حسين فنطر** ، والهادى سليم ، والدكتورة الحربى ، وشارك فى هذا المهرجان بعض المستشرقين ورجال الاختصاص ونحن نشكر ولاية الكاف على هذه العناية وننوه بنشاط الاستاذ عز الدين باش شاوش الكاتب العام للهيئة المنظمة للمهرجان •

◆ تونس تشارك فى المهرجان الدولى للشعر بيوغسلافيا :

مثل الشاعر جعفر ماجد تونس من 25 إلى 31 أوت فى الامسيات الشعرية التي تقام سنويا بمدينة ستروقا وهي مدينة جميلة تقع على الحدود اليوغسلافية الالبانية ، هيأت فيها الطبيعة إطارا ساحرا لهذا المهرجان الضخم الذي شارك فيه شعراء من أقطار عديدة من بينهم الاستاذ محمود حسن اسماعيل شاعر النهر الخالد ودعاء الشرق والشاعر الفرنسيان فرينو ودى بري وغيرهم .

واشتمل المهرجان على نقاش حول الشعر والالتزام وتلاوة شعرية في مختلف اللغات على أن كل القصائد كانت مترجمة إلى اللغة المقدونية بينما كانت اللغات المستعملة في الندوة (الانكليزية — الفرنسية — الروسية — اليوغسلافية) . وقد كانت المشاركة التونسية لامعة جدا ، الامر الذي لفت انتباه الصحافة وكافة الوفود إلى المبعوث التونسي فأجرت معه الاذاعة اليوغسلافية حديثين وأجرت معه التلفزة المقدونية لقاء، وعاد جعفر ماجد بعدد كبير من الدواوين والدعوات الادبية.